سامي شورش

كردستان والأكراد: الحركة القومية والزعامة السياسية

إدريس بارزاني... نموذجاً

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي راپەرين – اربيل – كوردستان العراق

ص. ب: رقم ١

كُردستان والأكراد

الحركة القومية والزعامة السياسية

إدريس بارزاني... نموذجاً

سامي شورش

اسم الكتاب: كردستان والأكراد- الحركة القومية والزعامة السياسية. إدريس بارزاني... نموذجاً
تأليف: سامي شورش
من منشورات ئاراس رقم: ٨٢
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: دلاور صادق امين
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠١/٣١٧

الفهرست

توطئة عامة 7

الفصل الأول: 19

بارزان: المشيخة والتصوف والسياسة

- القرية: فضاءات التاريخ والجغرافيا 21
- عشيرة بارزان: التشكيل الأول 25
- الشيخ محمد: بذور التحولات الأولى 30
- الباني الأول: الشيخ عبدالسلام بارزاني 36
- بارزان: التسامح الديني 39
- الشيخ أحمد: إستمرار الإنتفاضات 45
- إنتفاضة عام ١٩٢٧ 49
- إنتفاضة ١٩٣٢-١٩٣٣ 55

الفصل الثاني 61

مصطفى بارزاني: التحول الأكبر

- الكُرد في مفترق الحرب العالمية الثانية 63
- إنتفاضة بارزان ١٩٤٣-١٩٤٥ 70
- البارزانيون في كُردستان إيران 77
- بارزاني بعد عودته الى العراق 81
- إيران والكُرد: المحطة الأولى 85
- إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ 94

الفصل الثالث 105

إدريس بارزاني: النشأة والبدايات

- طفولة الكهف والمنفى 107
- تموز ١٩٥٨ وإنتفاضة ١٩٦١ 112
- معركة هندرين 117
- آذار ١٩٧٥: محطة سياسية رئيسة 123
- كُردستان: تجدد الحرب الدامية 133
- عودة الخلافات القديمة 142

الفصل الرابع 147

المحطة الأخيرة: المصالحة القومية

- إيران والكُرد والتحولات 149
- إعادة توحيد الصف القومي 155
- مأساة بارزانية أخرى 160
- جولة أخرى من العلاقات المتناقضة 163
- إدريس في عيون مرافقيه 170

خلاصة عامة 175

فهرست الأعلام 181

توطئة عامة

يتفق الكُرد على أن إدريس بارزاني، النجل الثالث للزعيم الراحل مصطفى بارزاني، يمثل في تاريخ حركتهم القومية الحديثة محطة بارزة على صعيد الزعامة السياسية والعسكرية. ويشير الباحثون والمتابعون الكُرد عند حديثهم عن المقطع الزمني الذي نشط فيه إدريس، وهو الحقبة الممتدة من منتصف العقد الستيني للقرن العشرين الى وفاته في مطلع عام ١٩٨٧، الى أنه كان بمثابة ضلع أساسي في مثلث الزعامة الكُردية في تلك الحقبة، الى جانب والده الراحل، مصطفى بارزاني الذي شغل المشهد السياسي الكُردي لأكثر من نصف قرن، وشقيقه الأصغر الرئيس الحالي للحزب الديموقراطي الكُردستاني مسعود بارزاني.

غير أن اللافت في هذه الصورة، أن الكُرد الذين يعرف عنهم الإحترام الشديد لقادتهم البارزانيين، لايشيدون بالدور السياسي والعسكري الذي لعبه إدريس في إحدى أعقد مراحل حركتهم القومية فحسب، بل يشيدون أيضاً بشخصيته الهادئة وتواضعه الجمّ وسلوكيته السياسية الراقية وجرأته في مواجهة الصعاب وشجاعته في تحمل تبعة الأخطاء ومسؤولياتها، إضافة الى آفاقه الثقافية وإحترامه الشديد للتنوع السياسي والإجتماعي في مجتمعه لجهة كثرة الأديان والطوائف والإثنيات في صفوفه.

في السياق نفسه، يلاحظ أن السلوكية العصرية التي طبعت شخصية إدريس، بما فيها منهجه في العمل السياسي، لم تتعارض مع هويته الجبلية وكونه سليل إحدى العائلات الدينية الكبيرة في كُردستان. بل على العكس، إستطاع هذا المتحدر من إنتفاضات الريف الجبلي والمترعرع في أحضان المدن، أن يجمع في تكوينه السياسي والثقافي بين قطبي العصرنة والريفية.

الى هذا، يلاحظ أن تلك السلوكية تعارضت الى حد لافت، مع التوترية الآيديولوجية الحادة التي طبعت، ولاتزال تطبع تجارب كثير من السياسيين في الشرق الأوسط على مختلف مشاربهم الفكرية وإنتماءاتهم القومية والسياسية.

واللافت، أن إدريس الذي مارس السياسة من منطق أخلاقي، ظلّ بعيداً عن توترية السياسة على رغم أن عائلته وعشيرته، بل وتجربته الشخصية منذ الطفولة، قليلاً ما إستراحت من حياة التوتر والمنافي والسجون والإنتفاضات المسلحة من ناحية، وصميم السياسة من ناحية أخرى.

الى ذلك كلّه، أكثر ما ميّز زمن إدريس، الى صراعاته وحروبه وتوتراته السياسية والإقتصادية والإجتماعية، تخمته بالآيديولوجيات المتشددة ولغة العواطف المنفعلة وفورانات الغضب، الثوري وغير الثوري. يذكر أن بعض أمثلة هذا الحال، تجسد في الفترة نفسها، في تشنجية الثورة لدى تشي جيفارا وفيدل كاسترو، وفوضويتها لدى طلاب أوروبا وشبابها، ودمويتها في سهوب آسيا ومستنقعاتها في فيتنام والصين وكمبوديا.

في إطار هذه التعقيدات، عاش الكُرد في كُردستان العراق حقبة بالغة الصعوبة والقتامة. وما فاقم من آلامهم القومية أن الدولة العراقية التي تمتعت بهامش ديموقراطي جدّ ضيّق في الشطر المحصور بين تأسيسها في مطلع العشرينات الى نهاية خمسينات القرن الماضي، سرعان ما تحولت في قوانينها ودساتيرها غير المتوازنة الى حاضنة طبيعية لتصاعد دور العسكر في الحياة السياسية.

وكان من شأن هذا، معطوفاً على الأجواء العالمية وأوضاع الشرق الأوسط، أن يفتح الباب واسعاً أمام تحول هذه الدولة الى وعاء هائل للديكتاتورية وتجييش المجتمع وتغييب الديموقراطية. وفي مراحل لاحقة الى نموذج نابذ لنفسه ولتكويناته الداخلية من جهة، ولفضائه المجاور والدولي من جهة أخرى. وكان الكُرد، وسط هذا العراق، مثالاً لأعقد قضية قومية في الشرق الأوسط والعالم.

والواقع أن تعقيدات هذه القضية لم تنبع من فداحة التضحيات والخراب والدماء التي سالت من الكُرد فحسب، بل نبعت، أيضاً، من الصعوبة الجيوسياسية البالغة التي أحاطت ببلادهم وقضيتهم القومية.

في هذا الزمن العراقي والإقليمي والدولي العصيب، المتأزم، الدموي، الحالك، تبوأ إدريس موقعاً رئيسياً ضمن مثلث الزعامة الكُردية العراقية

اعتباراً من عام ١٩٦٥. وإستطاع بمساعدة مباشرة من والده وشقيقه الأصغر، وبقية العناصر القيادية في الحزب الديموقراطي الكُردستاني، أن يمنح الحركة القومية الكُردية دفقاً كبيراً من القوة والإندفاع والإزدهار. وقد تجلت صفحات هذه القوة، في بعض صورها، في نمو إنتفاضة أيلول ١٩٦١ من نحو ثلاثة آلاف مقاتل (پيشمرگه) في ١٩٦٥ الى نحو خمسين الى مئة ألف مقاتل في ١٩٧٤ ومن حركة منسية في مطلع الستينات الى حركة شغلت موقعاً لافتاً في المشهد السياسي العالمي والإقليمي في النصف الأول من السبعينات. وكانت الحركة الكُردية في العراق بهذا العدد الكبير من مقاتليها وكوادرها وعناصرها وثقلها السياسي بمثابة أوسع حركة تحررية مسلحة تشهدها منطقة الشرق الأوسط طوال مئة عام.

هناك إنطباع مفاده أن إدريس وصل الى الزعامة نتيجة كونه نجل الزعيم الكُردي، ملا مصطفى بارزاني. لكن القلة في خارج الوسط الكُردي، تعرف أنه شغل موقعه عن جدارة لافتة. وأنه بدأ حياته السياسية مسؤولاً إدارياً في منطقة صغيرة تدرج بعدها في مراتب العمل العسكري والحزبي نتيجة جهده ومؤهلاته الشخصية. وكانت قيادته لمعركة هندرين في مايس ١٩٦٦، ودوره الحيوي في المفاوضات السياسية التي أدت الى توقيع إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ مع الحكومة العراقية، أمثلة ساطعة على قدراته القيادية. أما كونه نجل الزعيم الكُردي الراحل، فلم يساعده سوى في إكتساب خبرة أوسع ومعرفة أدق بتفاصيل الحياة السياسية وتعقيداتها وشعابها.

الى هذا كلّه، كان نموذجاً مثالياً لحياة البارزانيين: صلابة في الموقف السياسي والعسكري، وسلاسة في إحترام الآخرين وآرائهم، ونزوع جارف للسلام وكره العنف وإراقة الدماء. وقد تبين الملمح الأهم في ذلك كلّه، في مغامرته الجريئة بزيارة بغداد في مطلع آذار ١٩٧٤ لإقناع القادة العراقيين على تجنب الحرب وإستئناف الجلوس الى مائدة المفاوضات. هذا وسط مخاوف كبيرة على حياته، خصوصاً أنه كان أول من حاولت الحكومة العراقية إغتياله بعد إتفاقية ١٩٧٠.

في مرحلة لاحقة إضطلع إدريس الذي كان يجمع في شخصيته إندفاع

مقاتل جبلي الى صبر سياسي عصري ورؤية مثقف ناضج، إضطلع بدور رئيسي في معالجة آثار النكسة التي لحقت بالحركة القومية الكُردية في آذار ١٩٧٥ إثر إتفاقية الجزائر بين العراق وإيران. ومازال كثيرون، بمن فيهم كاتب هذه السطور، يتذكرون مواقفه النبيلة وإشرافه المباشر على حلّ مشكلات اللاجئين الكُرد الذين توجهوا الى إيران بعد أن أفقدت النكسة عيونهم بريقها ونضارتها.

في الوقت نفسه، مازال الكُرد يتذكرون إقدامه الشجاع على المبادرة بعقل سياسي راجح، وفي غياب والده، وبمساعدة مباشرة من شقيقه مسعود، الى تنظيم وتوجيه وإطلاق إنتفاضة مسلحة جديدة في ١٩٧٥-١٩٧٦. ويؤكد جميع من عمل معه[١] في تلك الفترة أن دوره في الإنتفاضة الجديدة التي تعرف بين الكُرد بثورة گولان[٢]، كان اساسياً، وأن هذا الدور لم يقتصر على قيادة المقاتلين وتلبية إحتياجاتهم التعبوية فحسب، بل شمل بالدرجة الرئيسية توفير الأرضية السياسية والتنظيمية للإنتفاضة في ظروف صعبة ومعقدة لا أقلها التعاون الإيراني-العراقي لمنع قيام إنتفاضة كُردية جديدة.

الى ذلك، قام بدور أساسي في إعادة ترتيب البيت الداخلي الكُردي. وكانت نكسة ١٩٧٥ قد هيأت أجواءً ملؤها الفوضى وشيوع الإتهامات ونشوء أحزاب ومنظمات مبعثرة أقل ما يقال فيها إنها جاءت إنعكاساً لروح النكسة وأجوائها النفسية. والأرجح أن قناعة إدريس بضرورة حفظ الهوية الموحدة للحركة القومية الكُردية، وتقديره في الوقت عينه لأهمية التعددية في الحياة الحزبية[٣]، كانا بمثابة العاملين الرئيسيين اللذين حضّاه على بذل جهود استثنائية من أجل المصالحة الكُردية في ١٩٨٦ وهندسة الجبهة الكُردستانية

(١) حريري، فرنسو: مقابلة مع الكاتب في أربيل في ٣ آب ٢٠٠٠. يذكر أن فرنسو الذي كان من أقرب مساعدي الراحل مصطفى بارزاني، وإدريس، وبعدهما مسعود بارزاني، أغتيل في أربيل في ١٨ شباط ٢٠٠١.

(٢) أعلن الحزب الديموقراطي الكوردستاني -القيادة الموقتة- هذه الإنتفاضة في ٢٦ مايس ١٩٧٦، أي بعد أكثر من عام على النكسة التي أصابت إنتفاضة أيلول.

(٣) أنظر: مجلة (ماموستاي كورد) مجلة كوردية تصدر عن القسم الكوردي في المعهد العالي للمعلمين في ستوكهولم، السويد، مقابلة مع إدريس بارزاني أجراها رئيس تحرير المجلة فرهاد شاكلي، العدد ٤-٥، تموز ١٩٨٧

التي تم الإعلان عنها بعد وفاته. وكان إدريس في تفاصيل تلك الصورة كلها، جزءً حيوياً من التاريخ السياسي الكُردي المعاصر.

لكن مع هذا، قلما تناول المختصون والدارسون الكُرد تجربته بالبحث والتمحيص، أو تجاوزوا عند حديثهم عنه وعن ذكرى رحيله حدود الإطراء الشخصي. وإذا ما صحّ وصف هذه الطريقة في التناول بأنها تعبير عن سمة الوفاء التي يشتهر بها الكُرد، فيصح القول أيضاً أنها أسهمت، في الوقت عينه، في إبقاء إحدى أهم صفحات التاريخ الكُردي وتجارب زعمائهم مطوية.

من دون شك، ليس الوفاء في حد ذاته السبب الوحيد لغفلة الكُرد عن التمعن في حياة إدريس وتجربته السياسية. إنما هناك أسباب أخرى ليس أقلّها قساوة الظروف التاريخية التي أحاطت ببلادهم كُردستان، وحرمتهم من فرصة إلتقاط انفاسهم ومراجعة ماضيهم وجمع تراثهم في مختلف المجالات السياسية والثقافية. وكان من شأن هذا الحال أن يميز الكُرد المعروف عنهم فرط حسّهم الأقلي، عن شعوب إسلامية كثيرة تستأنس، في العادة، بتقمص ماضيها وإستلهام رموزه وشخصياته التاريخية.

اياً تكن الحال، الواضح أن البحث في حياة زعيم شديد الكاريزما وبالغ الإندماج مع شعبه، كإدريس، قد لايكتمل في شكل واضح ومحدد إذا لم تسلّط الاضواء على مربعين حيويين في تجربته السياسية، أو بعبارة أدق، إذا لم تدرس هذه التجربة عبر قناتين تاريخيتين متلازمتين:

الأولى: العشيرة البارزانية التي ينتمي إليها ودور هذه العشيرة ورموزها وزعمائها في تكوين شخصيته وصقل أفكاره.

والثانية: الحركة القومية الكُردية ومضامينها وطرق تطورها خلال القرن الماضي، ومن ثم تأثيرها على نمط نظرته السياسية.

وإذ يجوز القول أن إدريس كان نتاج عشيرته البارزانية، فإن القول كذلك يجوز أن التمازج كان كبيراً بين عشيرة بارزان والحركة القومية الكُردية منذ نهاية القرن التاسع عشر. يشار الى أن هذا التمازج وصل منذ العقد الأول من القرن العشرين درجة من التفاعل لم يعد معها من السهل إستقراء أي من الحالين على إنفراد: العشيرة البارزانية والحركة القومية الكُردية الحديثة.

في هذا الخصوص تمكن الإشارة الى إنتفاضات الشيخ عبدالسلام بارزاني (الثاني) ضد الدولة العثمانية في مطلع القرن الماضي، وإنتفاضات الشيخ أحمد بارزاني ضد الحكومات العراقية والإنتداب البريطاني في الثلاثينات من القرن نفسه، إضافة الى إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ التي قادها مصطفى بارزاني، وإنتفاضتي أيلول ١٩٦١ ونيسان ١٩٧٦ اللتين أدى فيهما إدريس دوراً أساسياً. هذا، طبعاً، بالإضافة الى سلسلة نشاطات سياسية هائلة، على مرّ القرن الماضي، كان للبارزانيين دور رئيسي في تنظيمها وقيادتها. لا أقلها دورهم في تأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي أصبح يشكل منذ النصف الثاني من أربعينات القرن الماضي العصب الرئيسي للحياة السياسية الكُردية.

هذا التداخل بين بارزان والحركة القومية الكُردية دفع بكثير من الباحثين والمستشرقين والمختصين في الشأن الكُردي، الى دراسة صفحات رئيسية من الحركة القومية الكُردية من خلال عشيرة بارزان وحياة زعمائها وقصص تعرض أبنائها الى النفي والسجن. والواقع أن هذه العشيرة التي تتميز في بنيتها الإجتماعية والإقتصادية بسمات خاصة، منها مثلاً، خلوها من سمات النظام الإقطاعي وعدم إمتلاك شيوخها للإقطاعيات والأراضي والقرى، مثلت منذ بدايات نشوئها في أواخر القرن التاسع عشر حاضنة طبيعية لا لنمو بذور الوعي القومي الكُردي فحسب، بل لتداخل هذا الوعي بالشفافية السياسية والعدالة الإجتماعية أيضاً.

لهذا كلّه، تقتضي الأمانة العلمية أن يُصار الى دراسة التجربة السياسية لإدريس بارزاني وحياته من خلال مصدريهما الرئيسين: العشيرة البارزانية والتاريخ القومي للكُرد.

***

أزعم أن هذا البحث المختصر يطمح الى تسليط الضوء على بعض المحطات الرئيسية في تجربة القائد الكُردي إدريس بارزاني. غير أنه لايؤرخ، بالمعنى الحرفي لكلمة التأريخ، حياة زعيم بارزاني أو عدد من زعماء عشيرته. إنما يحاول إستثمار المادة التي يوفرها التاريخ لرصد الحركة القومية الكُردية الحديثة وطرق تطورها وبعض تفاصيلها المهمة. لكن مع هذا، لايمكن لهذا

القول أن يلغي حقيقة أخرى مفادها أن البحث في التاريخ يفيد، إفادة كبيرة، في تسليط الضوء على حياة الأفراد وأدوارهم في صنع المادة التاريخية.

والواقع أن أهمية تجربة إدريس لاتنبع من كونها إمتداداً أو تجسيداً لتعاليم والده أو أعمامه أو أجداده. بل تنبع أيضاً من عوامل أخرى ليس أقلّها أنه مثّل، مع شقيقه، الرئيس الحالي للحزب الديموقراطي الكُردستاني، جيلاً متعلماً عصرياً من الزعماء البارزانيين، نهل العلم والثقافة المدينية عبر إنتقاله الدائم بين المدن العراقية في سياق حياة النفي التي عاشتها عشيرته.

الى ذلك، تنبع أهمية التجربة من أن صاحبها مارس السياسة وإضطلع بمسؤولية أساسية في قيادة الحزب الديموقراطي وحركة المقاومة الكُردية في فترة بالغة الصعوبة والتعقيد على مختلف الأصعدة الدولية والشرق أوسطية والعراقية والكُردية.

دولياً، كان العالم في العقود الثلاثة التي دخل فيها إدريس معترك المسؤولية السياسية يعيش ذروة الحرب الباردة بين القطبين الشرقي والغربي. ورغم أن الملامح الأساسية لهذه الحرب بوعائها السياسي القديم، تشكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية مع إنتصار دول الحلفاء على الدول النازية والفاشية وتحوّل الإتحاد السوفياتي الى قوة عظمى من خلال الحرب، إلا أن زخمها الأساسي إنفجر في العالم في نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي.

في هذا الإطار، يصح القول أن الدول والكيانات السياسية، هي التي تحملت بدرجة رئيسية أثقال تلك الحرب وإنعكاساتها السيئة. لكن الحقيقة التي لم تتضح إلا بعد إنهيار نظام القطبية الثنائية في مطلع التسعينات، أكدت أن الشعوب والأقليات والتكوينات الإثنية التي لم يسمح لها التاريخ والجغرافية بتأسيس كياناتها الخاصة، وفي مقدمها الشعب الكُردي، فاقت في تحمل تبعات الحرب الباردة ونتائجها الوخيمة الدول والكيانات السياسية.

وكان مبعث خسائر الشعوب والأقليات أن آليات تلك الحرب السياسية، أو ما أصطلح على تسميته بالنظام العالمي القديم، رفضت كلياً، على الأقل في منطقة الشرق الأوسط، الإعتراف أو التعامل مع الشعوب والأقليات أو تلبية

مطامحها السياسية.

وما زاد من آلام الكُرد أن بلادهم، كُردستان، تقع في ملتقى جيوسياسي بالغ التعقيد والحساسية في الشرق الأوسط. وينقل الصحافي الفرنسي رينيه موربيس الذي زار كُردستان في ١٩٦٦ عن الخبير الفرنسي المختص بالشؤون الكُردية بيير روندو أن الموقع الجغرافي لكُردستان وإمتداداتها في أربع من أهم دول المنطقة (تركيا وإيران والعراق وسورية) جعلت بلاد الكُرد بمثابة المفتاح الرئيسي لحل مشاكل الشرق الأوسط(٤).

فيما الحال على تلك الشاكلة، بدا الكُرد كأنهم يتحركون في عالم أصم تسد مصالح الدول الكبرى وموازين صراعاتها كل النوافذ والمساحات والفضاءات. عالم يوفر كل الوسائل لذبحهم وتفتيتهم، لكنه لايعطيهم الحق في الصراخ والإحتجاج. واللافت أن كثيراً من الباحثين والمهتمين بالشؤون الكُردية وصفوا الكُرد في فترة الحرب الباردة بأنهم أحد أكثر ضحايا الحرب الباردة تعرضاً للنسيان، وأن لا صديق لهم غير الجبال.

وإقليمياً، كانت منطقة الشرق الأوسط التي تتمتع بمزايا جغرافية كثيرة وعمق ثقافي وتاريخي سحيق، إضافة الى غنى إقتصادي ونفطي هائل، كانت تعتبر إحدى أهم ساحات الصراع البارد في ظلّ القطبية الثنائية بين الشرق والغرب.

والواقع أن المورد الإقتصادي والموقع الجيوسياسي لم يكونا السببين الوحيدين في إمتداد إنعكاسات الحرب الباردة الى الشرق الأوسط، بل أن الطبيعة الديكتاتورية والإستبدادية التي طبعت أغلب الأنظمة السياسية في المنطقة، هيأت هي الأخرى، أرضية ملائمة لإمتداد قوانين تلك الحرب وآلياتها وقساوتها الى المنطقة. واللافت أن المنطقة بتاريخها الموغل في القدم، وحسابات التقاليد والثقافة السياسية القديمة فيها، شكّلت مبررات ملائمة لإندفاع الحرب الباردة الى أعماقها. وفيما الوضع كذلك، بات الكُرد في ملتقاهم الجغرافي المدمر أحد أكثر الضحايا معاناة تحت أثقال الحرب غير

(٤) رينيه موربيس، كُردستان أو الموت، ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله، دار ئاراس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، كُردستان، أربيل ١٩٩٩، صفحة ٢٢.

المنظورة بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي.

وعراقياً، تميزت علاقات الكُرد بالدولة العراقية بتوتر غير قليل. فالدولة التي أنشأتها بريطانيا في مطلع العقد الثاني من القرن الماضي، عن طريق دمج ولايتي بغداد والبصرة، ولاحقاً ولاية الموصل (كُردستان العراق حالياً) في ١٩٢٦، نالت استقلالها في ١٩٣٢ بحسب وثيقة دولية صادرة عن عصبة الأمم. وعلى رغم أن الكُرد رأوا في تلك الفترة أن حقهم الطبيعي يقضي بتمتعهم بحقوق قومية وسياسية واسعة ومساوية لحقوق بقية الشعوب الشرقية التي تحررت من نير العثمانيين، بما فيها إنشاء دولة قومية مستقلة، إلا أن الدولة العراقية الحديثة سرعان ما تراجعت حتى عن إلتزامها بالبند المتعلق بحماية الحقوق الثقافية الكُردية في وثيقة إستقلالها.

وما فاقم من شدّة الحال، أن الحرب الباردة وفرت أمام الدولة العراقية، العتلة الضرورية للإندفاع في سياسة تغييب شروط الحياة الديموقراطية، والشروع في حملة منظمة لإستئصال العنصر الكُردي من نسيج العراق. وكان مشروع الحويجة لإسكان العشائر العربية في قرى كُردية هُجّر أهلها قسراً في غرب كركوك في ١٩٣٦، بمثابة المحطة الأولى.

لاحقاً، إتسعت حملات القمع والتنكيل لتدخل مع مطلع الستينات إحدى أخطر مراحلها. وكانت هذه الخطورة في الواقع، العامل الرئيسي في إندلاع إنتفاضة ١١ أيلول ١٩٦١ التي لعب فيها إدريس دوره القيادي الأول.

أما كُردياً، فإن المجتمع الكُردي بدأ يواجه مع نهاية العقد الخامس من القرن الماضي، وبالذات مع ثورة الجنرال عبدالكريم قاسم في ١٤ تموز ١٩٥٨، مصاعب داخلية عدة:

الأول: تفاقم الحملات الحكومية، العسكرية والسياسية والثقافية، ضد كُردستان.

والثاني: بروز الصراعات المسلحة الداخلية بين الكُرد أنفسهم اعتباراً من منتصف الستينات.

والثالث: هجمة الآيديولوجيات الشمولية على الشرائح الكُردية المتعلمة. يشار الى أن القمع الذي مارسته السلطات العراقية على

الكُرد، معطوفاً على تعقيدات التخلف والأمية والبطالة وسوء الأحوال الإقتصادية، مهّد في شكل رئيسي لإنتشار تلك الآيديولوجيات وجرّها الكُرد الى معارك نظرية وداخلية لا طائل من ورائها.

ضمن هذه الأجواء المتخمة بالتعقيد والمصاعب، تحرك إدريس بارزاني وقاد حركة شعبه بجرأة سياسية كبيرة. بل أن كثيراً ممن عاصروه أو رافقوه في نشاطاته، يشهدون بأنه أدار ببراعة نادرة ملفات عدة في الحركة القومية الكُردية، خصوصاً ملف النشاط العسكري والسياسي والعلاقات الدولية والإقليمية. ويشير أكثر من سياسي كُردي الى أن الفضل في نقل المقاومة المسلحة ضد الحكومات العراقية من حرب عصابات مبعثرة ومشتتة في السنوات الأولى للإنتفاضة الى حرب جبهوية وتعبوية منظمة في آيار ١٩٦٦، يعود الى إدريس الذي نظّم وخطط وقاد معركة هندرين في تلك الفترة.

الى ذلك كلّه، تتمتع تجربة إدريس بنكهة خاصة لجهة كونها تجربة قائد سياسي جسّد في حياته وسماته السمات الرئيسية لحياة شعبه: الولادة في الكهوف في ١٩٤٤، وقضاء سنوات الشباب في أحضان الإنتفاضات، أيلول ١٩٦١ ونيسان (گولان) ١٩٧٦، ومن ثم الموت في المنافي والجبال في ١٩٨٧.

لكن اللافت أن الكُرد الشغوفين بصفات الشجاعة والإقدام والبسالة، لايقتصرون في محبتهم لإدريس على شجاعته وجرأته وروحه الإقتحامية والعسكرية فحسب، بل يجلّون فيه، كما سبق القول، تواضعه وعقله السياسي المتفتح وصراحته في الإعتراف بأخطائه وتحمل مسؤولياتها ونتائجها. ويروي أكثر من شاهد عيان أن إدريس بصفاته هذه لعب دوراً رئيسياً في حضّ الكُرد على تجاوز الإحباط النفسي الذي أصابهم جراء نكسة آذار ١٩٧٥ في إتجاه إستئناف نضالهم المسلح في ربيع ١٩٧٦.

***

في محاولة للعودة الى الأصول، يتناول الفصلان الأولان من هذا البحث المختصر ثلاث محطات أساسية في تاريخ تطور الزعامة البارزانية التي ترعرع إدريس في ظلّها:

الأولى: مرحلة نشوء الزعامة البارزانية على يد الشيخ عبدالسلام في مطلع القرن العشرين، والخلفيات التاريخية لهذه المرحلة، بما فيها دور المشيخة الصوفية النقشبندية في صياغة المحتوى الإجتماعي والإصلاحي لتلك الزعامة.

والثانية: مرحلة التحولات الجوهرية التي حدثت في الزعامة البارزانية لجهة إنتقالها من شكلها الصوفي الى شكل سياسي بحت، وما رافق ذلك من تطورات وتفاعلات ضمن إطار المشيخة ذاتها من ١٩٢٧ الى ١٩٤٥.

والثالثة: مرحلة الزعامة السياسية الشاملة إعتباراً من عام ١٩٤٥ على يد أشهر البارزانيين على الإطلاق مصطفى بارزاني.

أما الفصلان الثالث والرابع، فإنهما يبحثان في حياة إدريس ونشأته وبدايات إنخراطه العملي في معترك السياسة، ودوره الحيوي في قيادة الحركة القومية الكُردية.

في سياق هذين الفصلين يتم التركيز على مرحلتين أساسيتين في تجربة إدريس: الأولى، دوره ومساهماته في إنتفاضة أيلول المسلحة (تُعرف بين الكُرد بثورة أيلول) من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٧٥. والثانية، دوره في تجديد الحركة الكُردية المسلحة وتطويرها وذلك اعتباراً من نيسان عام ١٩٧٥ حتى وفاته في مطلع عام ١٩٨٧. وكان إدريس طوال المرحلتين قائداً سياسياً ثاقب النظر، ومخططاً عسكرياً لامعاً، وعاملاً رئيسياً في حفظ لحمة النسيج السياسي الكُردي.

لكن المشكلة أن هذا البحث، الذي لايهدف، بالطبع، الى كتابة تاريخ، أُعد في ظروف إفتقد فيها كاتب هذه السطور الى مصادر كثيرة يتطلبها عمل كهذا. كما عرقلت الظروف ذاتها جهود الكاتب لإجراء مقابلات ميدانية كافية تغني البحث بمعلومات شفوية عن حياة إدريس ومحطاتها الرئيسية التي لم تتحول حتى الآن الى تاريخ مكتوب. وكان من شأن هذا كله، أن يدفعه الى الإعتماد على عدد محدود من المصادر والمقابلات الميدانية جمعها أو أجراها خلال زيارات قصيرة قام بها الى مدينة أربيل خلال العامين الماضيين، إضافة

الى تسهيلات معلوماتية مهمة قدمها عدد من الأفاضل.

في ختام هذه التوطئة العامة، أجد أن الوفاء يقضي بأن أتقدم بجزيل شكري وفائق إحترامي الى الزعيم الكُردي مسعود بارزاني الذي لم يتوانَ عن مدّ يد العون وتزويدي بالمعلومات والمعطيات اللازمة لسياق هذا البحث. كذلك أتقدم بالشكر والتقدير الى النجل الأكبر للراحل إدريس، نيچيرڤان بارزاني، رئيس حكومة إقليم كُردستان العراق في الوقت الحالي.

الى ذلك أجد نفسي مديناً لأصدقاء وأساتذة ومناضلين لم يبخلوا عليّ بالمشورة والمساعدة والإجابة على أسئلتي إن عن طريق المقابلات المباشرة أو عن طريق الفاكس والرسائل. هنا لابد من توجيه تحية خاصة الى ذكرى الشهيد فرنسو حريري الذي زودني بآراء ومعلومات مفيدة كلما لقيته في زياراتي الى كُردستان قبل مصرعه في ١٨ شباط ٢٠٠١

كذلك أشكر الأستاذ الفاضل محسن دزهيى الممثل الشخصي للرئيس مسعود بارزاني، والدكتور محمود عثمان والأستاذ شمس الدين مفتي اللذين لم يبخلا عليّ بكل مساعدة ممكنة من ناحية الإجابة على اسئلتي وإستفساراتي وما كان يستعصي عليّ من تواريخ ومعلومات.

كما أجد من واجبي أن اشكر صديقي العزيز بدران أحمد حبيب مسؤول دار (ئاراس) للطباعة والنشر، الذي زودني بمصادر ووثائق مستنسخة عديدة وجمع لي معلومات غنيّة حول موضوع البحث. كما أشكر جميع العاملين معه في الدار ممن ساعدوني في إتمام طبعه وإخراجه. وأشكر ايضاً أستاذي الفاضل جرجيس فتح الله الذي تحمس لمشروع هذا البحث وردّ على أسئلتي برحابة صدر العالم والمؤرخ.

شكري الوافر للجميع وتمنياتي أن أكون وُفِّقتُ في تسليط الضوء على صفحة معاصرة من صفحات التاريخ السياسي الكُردي: تجربة الراحل إدريس بارزاني الذي يطلق عليه الكُرد إسم (الشهيد المظلوم) في إشارة واضحة الى خدماته الجليلة في سبيل شعبه من دون أن يحصل أو يتطلع للحصول على أي إمتياز.

سامي شورش

الفصل الأول

بارزان: المشيخة والتصوف والسياسة

القرية وفضاءات التاريخ والجغرافية

تقع قرية بارزان في السفوح الجنوبية لجبل شيرين الذي يتفرع من سلسلة جبال زاگروس في نقطة قريبة من المثلث الحدودي بين العراق وتركيا وإيران.

ويصف كثير من الباحثين هذه السلسلة الجبلية التي تمتد نحو ألف كيلومتر من جنوب غربي إيران الى جبال طوروس وأنتي طوروس في جنوب الأناضول، على طول الحدود العراقية الإيرانية، ومن ثم الحدود العراقية التركية، بأنها العمود الفقري لبلاد الكُرد، أو ما أصبح يُعرف لدى الجغرافيين العرب، منذ القرن الثاني عشر الميلادي بكُردستان[٥].

والواقع أن التفسيرات المتعلقة بمنشأ إسم بارزان تكتنفها إختلافات غير قليلة. وإذ ترى الشخصية الكُردية المتنورة معروف چياووك، مؤلف كتاب (مأساة بارزان المظلومة) أن إسم بارزان نسبة الى عشيرة برازي الكُردية القديمة، أو أنه إسم للجد الأعلى للبارزانيين أو تحوير لكلمة (بارسان) أي الدراويش أو (برازان) أي إخوان الصفا[٦]، نجد المؤرخ العراقي عباس العزاوي ينقل عن كتاب (شرفنامه)[٧] للمؤرخ الكُردي شرف خان بدليسي أن عشيرة زيبار، العشيرة الأم لشيوخ بارزان، إنتشرت على ضفتي نهر الزاب الكبير، وكانت في هذه الإنحاء قلعة بإسم (بازيران) التي هي اللفظة الأصلية لإسم عشيرة بارزان[٨].

هذا في حين يعتقد الباحث الأميركي المختص في الدراسات اللغوية المقارنة (مايكل آستور) أن كلمة بارزان هي اللفظة الحديثة لإسم إله قديم بين الحيثيين والأورارتوريين إسمه (أورو بارزونا). ويشير آستور الى أن هذا الإسم يرد في

(٥) خصباك، شاكر: الأكراد والمسألة الكُردية، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة الرابطة ١٩٥٩ ص١٤.

(٦) چياووك، معروف: مأساة بارزان المظلومة، المطبعة العربية، الطوب - بغداد ١٩٥٤، صفحة ٥٢.

(٧) بدليسي، شرف خان: شرفنامه، الطبعة الكُردية، ترجمة: هَژار موكرياني، النجف الاشرف ١٩٧٣، صفحة ٢٥٨-٢٥٩.

(٨) العزاوي، عباس: عشائر العراق الكُردية، بغداد ١٩٤٧، صفحة ١٩٥-١٩٦

أحد الشواهد القديمة لفترة الملك الآشوري تيگلات بيليزر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد، وذلك بالترابط مع إسم مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير. لهذا لايستبعد الباحث الأميركي أن تكون تلك المدينة هي بارزان الحالية[٩].

والواقع أن وصف جبال زاگروس بالعمود الفقري لبلاد الكُرد، لايستمد مبرراته من الإمتداد الجغرافي لتلك الجبال من الجنوب الى الشمال في قلب الاراضي الكُردية فحسب، بل من كونها الحاضنة الأولى لعملية النشوء الإثني الأول لأسلاف الكُرد في الألف الثاني قبل الميلاد. في هذا السياق، يتفق أكثر الباحثين والمختصين في الشأن الكُردي على أن البدايات الأولى لمنشأ الكُرد، من الناحية الإثنية، تعود الى الإمتزاج الذي حصل بين شعوب وقبائل قديمة إستوطنت وديان زاگروس وسفوحها الشرقية والغربية مثل قبائل (لولو وكوتي وهورارتو)، وبين موجات القبائل الميدية التي إستقرت في الأرجاء نفسها في بداية الألف الثاني قبل الميلاد[١٠].

جغرافياً، تقع قرية بارزان، موطن الشيوخ البارزانيين النقشبنديين، على بعد نحو مئة كيلومتر الى شمال شرقي مدينة أربيل، وخمسة وعشرين كيلومتراً الى شمال شرقي مدينة عقرة. وعلى رغم أن جبل شيرين الذي يحتضن بارزان، لايعدو أن يكون لساناً صخرياً وبركانياً هائلاً يفتقر في أكثر أجزائه الى الينابيع ومصادر المياه الطبيعية، إلا أن الوادي الذي يفصله عن جبال پيرس وعقرة، يمتاز بوفرة خضرته وكثرة القرى المنتشرة في أرجائه، إضافة الى غزارة مياهه: نهر الزاب الكبير من جهة، وفرعه دائم الجريان (روكوجك) من جهة ثانية.

المستشرق البروتستانتي الأسكوتلندي دبليو. أي. ويگرام الذي زار منطقة بارزان في العقد الأول من القرن العشرين للإطلاع على أوضاع المسيحيين في

(٩)

Michael C.Astour, Semites and Hurrians in Northern Transtigris, studies on the Civilizatin and Culture of Nuzi and the Hurrians. Volume 2. Winona Lake Indiana, Eisenbrauns 1987, PP 1-66

(١٠)

Safrastian, Arshak: Kurds and Kurdistan,London, Havill Press, 1948, P16-17.

إيران وبلاد الكُرد، وصف الوادي الذي تقطنه عشيرة بارزان بأنه غور عظيم في سطح الأرض يمتد شرقاً وغرباً، يبدأ من مدينة الجزيرة (جزيرة ابن عمر) التي تقع في نقطة قريبة من الحدود التركية السورية، ويمرّ بالعمادية (في كُردستان العراق حالياً) لينتهي بالجبال الواقعة على الحدود الإيرانية. وهو بطوله الذي يناهز ١٢٠ ميلاً يبدو وكأنه خندق هائل[١١].

الى ذلك، تمتاز منطقة بارزان، من الناحية الطوبوغرافية بتضاريس جبلية منيعة. وتقع قرب البوابة الجبلية المعروفة (كيله شين) التي تعتبر إحدى أهم البوابات الطبيعية في جبال زاگروس. وكان يمر من خلالها الطريق التجاري القديم (طريق الحرير الصيني) الذي كان يربط الأناضول بإيران والهند في العصور القديمة. ومعروف أن هذا الطريق كان بمثابة كتلة برية مهمة إستخدمته الجيوش العثمانية لمهاجمة الصفويين الإيرانيين في معركة چالديران في ١٥١٤، وقبلها الجيوش اليونانية لإحتلال شمال شرقي إيران في القرن السادس قبل الميلاد.

أما تاريخياً، فتمتاز المنطقة بعراقة الحياة البشرية في أرجائها. وفي هذا الخصوص، يشير عدد من المختصين في الإثنيات القديمة الى أن قبائل قديمة كانت تُعرف بـ(لولو وكوتي وأورارتو وهورياني وميتاني) سكنت في عصور موغلة في القدم سفوح جبال زاگروس[١٢]. هذا بينما عثرت فرق تنقيبات أثرية من جامعات أميركية وبريطانية وعراقية في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي على آثار وهياكل عظمية لإنسان نياندرتال القديم في كهف شانَدَر القريب من قرية بارزان.

والأرجح أن هذه المزايا الجغرافية والطوبوغرافية والتاريخية عكست، عبر تفاعلات تاريخية، تأثيراً ملحوظاً على التكوين الإجتماعي والثقافي والنفسي للمجموعات البشرية التي قطنت أطراف جبل شيرين وفي مقدمها

(١١) ويگرام، أي دبليو. مهد البشرية الحياة في شرق كُردستان (الترجمة العربية) تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، بغداد ١٩٧١. صفحة ١٣٠.
(١٢)

Boyce, Mary: Zoroastrians, Their Religious Beliefs and Practices, Routledge & Keganpaul, London and New York 1979, P2-16.

البارزانيون. وبالرغم من إمكان حصر مميزات لافتة في حياة هذه المجموعات من ناحية أنظمتها الدينية والإقتصادية والإجتماعية، إلا أن المفيد، هنا، هو أن نشير الى سمتين متلازمتين ومتداخلتين في تكوين عشيرة بارزان، مع ملاحظة إشارات التناقض الواضحة في إجتماعهما:

الأولى: رجفة الخوف التي تطبع حياة البارزانيين حيال كل سيطرة غريبة أو أجنبية على مناطقهم، وإستعدادهم الفطري للإحتماء بعزلتهم الجغرافية ووعورة التضاريس والجبال في منطقتهم كلّما لاحت أخطار السيطرة الأجنبية في الأفق.

والثانية: سمة التواصل مع، أو الإنفتاح على الآخرين في إطار من العيش الهادىء والثقة المتبادلة معهم.

والأرجح أن إجتماع هاتين السمتين هما السبب في شدّة روح التشبث لدى البارزانيين بالتقاليد الذاتية وإطار العشيرة والولاء الجمعي، إضافة الى روح المقاومة والبسالة الجبلية التي يتمتعون بها. وفي الوقت عينه، في شدة قدرتهم على التسامح ونبذ العصبية ورغبة التناغم مع الآخرين.

وإذا صحّ إعتبار الإنتفاضات المتكررة التي طبعت تاريخ بارزان في مختلف الحقب العثمانية والبريطانية والعراقية، بمثابة تعبير واضح عن الرجفة من السيطرة الأجنبية، فإن عيش البارزانيين مع المسيحيين واليهود في قرى مشتركة على مرّ حقب تاريخية موغلة في القدم، من دون مصادمات أو مشاكل، دليل واضح على عمق التسامح الديني والإنفتاح اللافت اللذين تمتعوا بهما.

يقول الباحث البارزاني، بيرش، أن قرية بارزان سكنها اليهود والمسلمون والمسيحيون معاً. وكان لكل من أتباع هذه الأديان الثلاثة أماكن عبادتهم الخاصة يمارسون فيها شعائرهم الدينية في جو من التسامح المتبادل. وينقل الباحث عن معمرين من أهل القرية أن اليهود في بارزان كانوا أكثر عدداً من المسلمين والمسيحيين مجتمعين، مشيراً في هذا الصدد الى أن أسماء البساتين التي تتجاوز المائتين في القرية تدل على ذلك، لأنها لاتزال تحمل أسماء مالكيها الأوائل. لكن مع هذا لم تنشب أي منازعة بين أتباع الأديان الثلاثة

في القرية[١٣]. الى ذلك، يؤكد الباحث أن آثار كنائس ومعابد يهودية قديمة لاتزال موجودة في المنطقة.

عشيرة بارزان: التشكيل الأول وخلفياته

لم تكن عشيرة بارزان تُعرف كعشيرة مستقلة قائمة بذاتها حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١٤]. وكان البارزانيون، أو شيوخ الدين الذين سكنوا قرية بارزان، جزءً من عشيرة كبيرة تُعرف بالعشيرة الزيبارية، بينما الأصول البعيدة لشيوخهم تعود الى الشيخ تاج الدين الذي نزح جدّه، مسعود، في نهاية القرن الثامن عشر الى قرية (هفنكا) القريبة من قرية بارزان الحالية[١٥].

والواقع أن البارزانيين بدأوا في التحول الى عشيرة مستقلة إعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر. وكان للمشيخة الصوفية النقشبندية التي إزدهرت على يد شيوخهم في تلك الحقبة دور ملحوظ في إستكمال شروط هذه العملية التاريخية المعقدة.

مرّ المجتمع الكُردي في تلك الفترة، بمرحلة مخاضات إجتماعية وثقافية وسياسية كبيرة. وكان نشوء إمارات إقطاعية مستقلة مثل إمارة بابان في منطقة السليمانية، وإمارة أردلان في منطقة سنندج (سنه في لفظتها الكُردية) في كُردستان إيران، وإمارة بتليس في كُردستان تركيا بمثابة تعبيرات واضحة عن ذلك المخاض. هذا إضافة الى إزدهار الحركة الشعرية والأدبية الكلاسيكية ونشوء الطرق الصوفية في كُردستان، خصوصاً القادرية والنقشبندية.

(١٣) أنظر: بيرش، بارزان وحركة الوعي القومي الكُردي ١٨٢٦-١٩١٤، ١٩٨٠، صفحة ٢٤.

(١٤) يقول المؤرخ الكُردي زبير بلال اسماعيل أن مصطلح عشيرة بارزان لم يتبلور ويشاع إلا في عهد مشيخة الشيخ عبدالسلام (الثاني) أي ١٩٠٤-١٩١٤ أنظر: إسماعيل، زبير بلال: ثورات بارزان ١٩٠٧-١٩٣٥، الطبعة الأولى، أربيل ١٩٩٨، صفحة ١٥.

(١٥) بارزاني، مسعود: البارزاني والحركة التحررية الكُردية (١٩٣١-١٩٥٨)، الجزء الأول، باللغة الكُردية، مطبعة خبات، دهوك ١٩٩٨، صفحة ١٧.

وما زاد من فاعلية الطرق الصوفية بين الكُرد أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني[١٦] إنتهج في ذلك الشطر الزمني، سياسة مزدوجة إتسمت بقطبين متناقضين، على الأقل في إتجاه الشعوب والأقليات الإثنية والدينية التي إنضوت في إطار إمبراطوريته:

الأول: إدخال إصلاحات إقتصادية وإجتماعية على بنيان دولته ومحاربة مراكز القوى العشائرية والإمارات وتدميرها بهدف مركزة السيطرة العثمانية وتشديد قبضتها على الكُرد على حساب نفوذ الإقطاعيين ورؤساء العشائر.

والثاني: تمتين التحالف مع الإقطاعيين ورؤساء العشائر الكُرد، لضمان ولائهم واستخدامهم في قمع الإنتفاضات التي تطلقها تلك القوميات أو في حروبها ضد الدول والإمبراطوريات الأخرى، الإيرانية مثلاً.

يشار الى أن السلطان عبدالحميد شرع في تطبيق سياسته هذه، عبر طرق مختلفة بينها تأسيس كتائب قتالية في عام ١٨٩٠ تابعة للدولة. وكانت هذه الكتائب التي عُرفت بـ(فرسان الحميدية) مؤلفة من رجال العشائر الكُردية بقيادة رؤسائهم الموالين للسلطان العثماني. في الإطار عينه بادر الى فتح مدارس خاصة في اسطنبول وبغداد في عام ١٨٩٢ لتعليم ابناء رؤساء العشائر الكُرد والعرب مباديء الإخلاص للدولة العثمانية وإغداق الوظائف والإمتيازات عليهم.

وفي فترة لاحقة قام بتعيين رؤساء العشائر وكلاء للدولة في جمع الضرائب من الفلاحين في مناطقهم. ويرى الباحث الكُردي الدكتور كندال نزان أن محاولات السلطان عبدالحميد كانت تهدف الى التقرب من العشائر ودمجهم في نظام دولته المركزية التي كانت في طريقها الى التفكك[١٧].

غير أن سياسة السلطان عبدالحميد الخاصة بالتحالف مع رؤساء العشائر

(١٦) حكم السلطان عبدالحميد الثاني من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩٠٨. لكن جمعية (جون ترك) أو (تركيا الشابة) أجبرته على التنازل في ١٩٠٨ بعد تعطيله الدستور.

(١٧) Kendal: Kurdstan in Turkey, People without Country, edited by Gerard Chaliand, Translated by Michael Pallis, Zed Press, London 1980, P47-106.

الكُرد لم تسهم في إزدياد أثقال الظلم والقسوة على كاهل الفلاحين فحسب، إنما أفضت كذلك الى نتائج عكسية أخرى أثّرت في شكل عميق على مسار الحركة القومية الكُردية وطبيعة زعامتها. وفي شكل عام يمكن حصر نتائج تلك السياسة على الشكل التالي:

- *إتساع نفوذ الشيوخ الصوفيين في المجتمع الكُردي نتيجة توجّه الفلاحين الى الإلتفاف حولهم بعد إصطفاف رؤساء عشائرهم مع الدولة العثمانية.*

- *شعور الشيوخ الصوفيين الكُرد أن التحالف الجديد بين الدولة ورؤساء العشائر يهدف الى تقليص نفوذهم وتشديد القمع ضدهم. وكان هذا الشعور في حد ذاته كافياً لدفعهم الى إستيعاب الفلاحين وتهيئتهم لإنتفاضات مسلحة ضد التحالف العثماني العشائري.*

- *وأخيراً إنفتاح فرصة واسعة أمام أبناء المدن والطبقات المتنورة والمقيمين الكُرد في العاصمة العثمانية اسطنبول للتحرك والإنغماس في الحياة السياسية والثقافية في غياب ثقل رؤساء العشائر داخل الحركة القومية الكُردية، إضافة الى تزايد الفسحة أمامهم لعقد تفاهم ضمني مع شيوخ الصوفية بهدف الوقوف في وجه تحالف الدولة العثمانية مع رؤساء العشائر.*

وإذا كانت إنتفاضة الشيخ النقشبندي سعيد پيران في كُردستان تركيا في ١٩٢٥ تعبيراً متأخراً عن تلك الظاهرة، فإن نشاطات الشيخ عبدالسلام بارزاني في العقد الأول من القرن العشرين، وقبله إنتفاضة الشيخ النقشبندي عبيدالله نهري في ١٨٨٠ كانتا بمثابة إشارات واضحة ومتقدمة الى تلك الظاهرة.

في هذا المنحى، هيأت حلقات الشيوخ الصوفيين بديلاً واقعياً أمام الفلاحين للإحتماء في وجه سطوة الدولة وممارساتها القمعية من جهة، وفي وجه ظلم رؤساء عشائرهم الإقطاعيين الذين عملوا كوكلاء للدولة المركزية من جهة أخرى. لهذا نرى أن شيوخ نهري وبارزان وبرزنجة وپيران لعبوا أدواراً رئيسية في قيادة الحركة الكُردية بعد أن إلتف حولهم أعداد كبيرة من المريدين

والأتباع. لكن ما ميّز شيوخ بارزان الصوفيين عن نظرائهم أنهم مزجوا دعوتهم الدينية الصوفية بمضامين الدعوة الى الإصلاح الإقتصادي والإجتماعي. لهذا كانوا أقدر البدائل المتوفرة أمام الفلاحين المهمشين للإحتماء.

والواقع أن المشيخة الصوفية البارزانية نشأت في الأصل عن الطريقة النقشبندية. أما عن وصول النقشبندية الى بارزان، فيذكر مسعود بارزاني أن مؤسس الطريقة مولانا الشيخ خالد نقشبندي إتخذ عند مروره بقرية بارزان في طريقه الى مدينة دمشق في بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، الشيخ عبدالسلام الأول جدّ الشيخ عبدالسلام الثاني خليفة له[١٨]. وقد بدأت المشيخة تعيش منذ ذلك الوقت إزدهاراً لافتاً على رغم أنها كانت تقع جغرافياً وسط مشيخات أخرى كمشيخة نهري النقشبندية في شمدينان شمال شرقي بارزان، ومشيخة البريفكانيين القادرية في بهدينان الى غربها.

يشير الديبلوماسي والمستشرق الأميركي وليام إيگلتن الذي زار منطقة بارزان وجاب مناطق كُردية عدة، ونشر لاحقاً كتاباً عن جمهورية مهاباد[١٩] أن أول شيخ بين البارزانيين إستلم الطريقة النقشبندية هو الشيخ تاج الدين الذي أخذها من السيد طه نهري خليفة خالد الشيخ النقشبندي مؤسس الطريقة في كُردستان.

أياً تكن الحال، شهدت مشيخة بارزان تطورات لافتة في بنيتها الصوفية، ما جعلها تتميز عن بقية المشايخ. وكانت ميزتها الاساسية أنها إتخذت طابعاً إجتماعياً وإصلاحياً لافتاً. بل إن شيوخ بارزان استطاعوا أن يقيموا أنماطاً إجتماعية وثقافية وصوفية، وحتى إقتصادية في نسيج مشيختهم، ما حوّل الطريقة النقشبندية لديهم الى ما يشبه طائفة دينية مستقلة.

والواقع أن هذا التحول الصوفي لم يأت جزافاً، بل كانت له أسباب محددة من أهمها ثلاثة أسباب رئيسية:

أولاً: عمق الترابط بين سكان منطقة بارزان والمعتقدات الدينية التي

(١٨) بارزاني، مسعود: المصدر نفسه، صفحة ١٧
(١٩) إيگلتن، وليام: جمهورية مهاباد،، صفحة ١٢٧. كذلك أنظر: العباسي، محفوظ: إمارة بهدينان العباسية، الموصل ١٩٦٩، صفحة ١٥٣.

سادت بين الكُرد في عصور ما قبل التاريخ.

وثانياً: كون المنطقة تقع على ملتقى جغرافي مهم حيث إنتقلت عبر بواباتها الطبيعية الأديان والمعتقدات والثقافات القديمة التي تركت تأثيراتها على النمط الديني لسكان المنطقة.

وثالثاً: فداحة المظالم التي أنزلها رؤساء العشائر بالفلاحين في المنطقة ما دعا رجال الدين البارزانيين الى تعميق صوفيتهم النقشبندية بأفكار داعية الى مناصرة الفلاحين وإحقاق العدل والمساواة.

واللافت أن المشيخة البارزانية حرصت منذ إزدهارها الأول على الدعوة الى إنصاف الفلاحين ورفع الغبن والإضطهاد عنهم وإدخال إصلاحات على وضع المجتمع الريفي الكُردي والحد من سلطة الدولة ووكلائها على رقاب الناس. كما حضّت على العمل وروح المساواة وتحريم قطع الأشجار ومنع قتل الحيوانات، إضافة الى إحترام مصادر المياه ونبذ الملكية الخاصة والإقطاعيات وإمتلاك القرى.

وإذ كان بعض هذه المعتقدات على صلة بالمعتقدات الدينية القديمة بين الكُرد، فإن أغلبيتها إتصلت بظروف المعيشة الإجتماعية والإقتصادية الصعبة التي مرّت بها كُردستان في ظل العثمانيين.

أسهمت هذه المباديء الصوفية-الإجتماعية، في تحول قرية بارزان ومشيختها الصوفية الى مركز ديني وصوفي وإصلاحي جذّاب، إضافة الى تحولها الى بؤرة لإجتماع الفلاحين ونقمتهم على رؤساء عشائرهم الذين مثّلوا قسوة الدولة العثمانية. وكان من شأن هذا كلّه أن يدفع برؤساء العشائر والإقطاعيين في المنطقة الى شعور مفاده أن شيوخ بارزان بدأوا ينافسونهم في نفوذهم. لذلك، لم يضمر هؤلاء كراهية مقيتة تجاه البارزانيين فحسب، بل أخذوا يحاولون في الوقت نفسه تأليب الدولة العثمانية ضدهم.

الشيخ محمد: بذور التحولات الأولى

لم يخبُ وهج مشيخة بارزان الصوفية بعد وفاة الشيخ عبدالسلام (الأول) في عام ١٨٨٤، إنما ولجت الى مرحلة إزدهار جديدة بعد تسنّم نجله الأصغر، الشيخ محمد، مقاليدها.

ويؤكد باحثون درسوا تاريخ البارزانيين في تلك الحقبة أن الشيخ محمد أحرز نجاحاً كبيراً ومتزايداً في حشد الفلاحين من أتباع العشائر الأخرى حول دعواته الى المساواة وإلغاء الضرائب وعدم الخضوع لإرادة العثمانيين[٢٠]. وما زاد من جاذبية تلك الدعوات أن الشيخ محمد لم يطلقها في شكلها الإجتماعي المجرد فحسب، بل ناغمها بطروحاته النقشبندية التي تضم في طياتها، أصلاً، بذور الدعوة الى المساواة والعدالة الإجتماعية. وهكذا تحول الإصلاح الإجتماعي في المرجعية الصوفية البارزانية الى واجب ديني[٢١]. وكان ذلك في حد ذاته تطوراً لافتاً في مسار المجتمع الكُردي، عكس في وقت لاحق، تأثيرات بالغة على مضامين الحركة القومية الكُردية.

لم يطق رؤساء عشائر المناطق المجاورة إتساع نفوذ شيوخ بارزان وتزايد عدد مريديهم وتعاظم شوكتهم. وما فاقم من تخوفات أولئك الرؤساء أن الشيخ محمد عزز من روح التعاضد والتعاون بين مريديه وأخذ يحثهم على الأخاء والجرأة في مقاومة الأعداء. في هذا الخصوص، يقول لونگريك أن الشيخ محمد كان حاكم منطقته الحقيقي حتى آخر يوم، ولم يخضع للعثمانيين[٢٢].

(٢٠) ضمت عشيرة بارزان في إطارها عدداً من العشائر التي تسكن شمال نهر الزاب الكبير، منها عشيرى بەروژى وشيروان ومزوري بالا ودولەمەرى ونزاري وكوردي، وأقساماً من عشيرة هركي.

(٢١) يذكر أن الطريقة الصوفية النقشبندية في حد ذاتها تحمل مضامين إجتماعية لافتة، خصوصاً لجهة نشوئها الأول في كُردستان العراق في القرن التاسع عشر على يد شيخ ديني من أصول فلاحية في منطقة قرەداغ، جنوب غربي السليمانية، هو الشيخ خالد أحمد آغا حسين جاف ميكاييلي المعروف بالشيخ خالد النقشبندي (١٧٧٩-١٨٢٦). وكان الشيخ خالد إستلم الطريقة النقشبندية من الشيخ عبيدالله دهلوي في الهند في ١٨٠٩

(٢٢) لونگريك، ستيفن- العراق الحديث ١٩٠٠-١٩٥٠، ترجمة سليم التكريتي، بغداد ١٩٨٨، ص ١٠٤-١٠٥

أما الذين عاشوا تلك الحقبة فإنهم يؤكدون أن التكية النقشبندية البارزانية تحولت في نهاية القرن التاسع عشر، أي في عهد الشيخ محمد، الى ملجأ للفلاحين الذين كانوا يهربون من بطش رؤسائهم(٢٣).

لهذا قدّم رؤساء العشائر في أطراف جبل شيرين شكاوى ضده الى الدولة العثمانية. وفي وقت لاحق بادروا الى عقد تحالف بينهم وبين السلطان العثماني وولاته المحليين، خصوصاً في الموصل، لمواجهة نمو نفوذه. وكان مؤدى التحالف أن يقوم رؤساء العشائر بجباية ضرائب باهظة من فلاحيهم نيابة عن الدولة مقابل إلتزامهم دعم العمليات العسكرية للسلطان العثماني ضد البارزانيين والعشائر التي تنتفض في وجه الدولة العثمانية.

في هذا الإطار يذكر الباحث (بيرش) أن رؤساء العشائر كانوا يجبون ضرائب (العشر) و(كودا) و(المتاع) وضرائب أخرى من فلاحيهم في محصول البساتين وعدد رؤوس الحيوانات والمنازل، إضافة الى الضريبة المفروضة على الأعمال الموسمية التي يؤدونها سخرة لرؤساء العشائر(٢٤).

أبدى الشيخ محمد مقاومة عنيفة ضد الدولة العثمانية وحلفائها من رؤساء العشائر المحليين. وتعرض في سبيل ذلك الى الإعتقال والإبعاد مرتين على يد السلطات العثمانية: الأولى الى مدينة الموصل في ١٨٧٧ والثانية الى مدينة بتليس في ١٨٩٣. لكنه، مع ذلك، لم يتخل عن دعوته وإنتفاضاته حتى وفاته في ١٩٠٣.

في هذه الفترة تحول الالتفاف الفلاحي حول شيوخ بارزان الى إتحاد عشائري متماسك. وكان من شأن هذا الإتحاد أن يتحول، في ظلّ روح التآلف والأخوة الصوفية والتكاتف الجمعي لمواجهة الأخطار والمظالم الخارجية، الى عشيرة موحدة تُعرف بعشيرة بارزان. وهكذا لم يكد القرن التاسع عشر ينتهي حتى تحولت الأخيرة الى إحدى أقوى خمس عشائر بين الكُرد(٢٥).

(٢٣) الدملوجي، صديق: إمارة بهدينان الكُردية أو إمارة العمادية، تقديم ومراجعة الدكتور عبدالفتاح علي بوتاني، الطبعة الثانية، دار ئاراس للطباعة والنشر، مطبعة وزارة التربية، أربيل ١٩٩٩، صفحة ٨٥.

(٢٤) بيرش، المصدر نفسه، صفحة ٢١

(٢٥) أنظر كتاب: Mcdowall, David. The Kurds _ A Nation Denied Minority Rights Publications, London 1991.

في هذا المعنى قد يكون صحيحاً أن الصوفية النقشبندية أثّرت في شكل مباشر في نشوء العشيرة البارزانية. وأدت منذ بدايات المشيخة البارزانية الى تعاظم المضمون الإجتماعي لدعوات شيوخها الصوفية. لكن الأرجح أن التصوف لم يكن العامل الوحيد في التحولات التي شهدتها المشيخة من صوفيتها البحتة الى صورتها السياسية والقومية. فالتغيرات الإجتماعية والثقافية والسياسية الحاصلة، آنذاك، في بنية المجتمعات في الشرق الأوسط، بما فيها بنية المجتمع الكُردي، عكست بدورها تأثيرات غير قليلة في عملية تحول المشيخات الصوفية في المجتمع الكُردي، وفي مقدمها المشيخة البارزانية، الى السياسة.

في هذا الإطار، تجدر الإشارة الى عدد من هذه التغييرات على النحو التالي: في السليمانية كانت إمارة بابان تعيش مرحلة تحولات معقدة نحو القومية على رغم بنيتها القبلية والإقطاعية. وكان أوضح النماذج في هذا الخصوص، الإنتعاش الثقافي والأدبي الذي شهدته الإمارة في القرن التاسع عشر، وبروز شعراء كلاسيكيين كُرد كبار في حدود الإمارة من أمثال ملا خضر نالي وقادر بك كُردي وسالم صاحبقران. وعلى رغم أن إمارة البابانيين لم تقم على أساس صوفي، إلا أن الشيوخ الصوفيين لعبوا في تأسيسها وإدارتها وتطوراتها دوراً ملموساً. وكان أهم المشيخات الصوفية المؤثرة في مسار الإمارة هي المشيخة الصوفية القادرية وشيخها الشهير معروف النودهي (١٧٥٣-١٨٣٧).

وكانت حال السليمانية من هذه الناحية شبيهة بحال إمارة أردلان وشعرائها في مدينة سنه (سنندج) التي عاشت في ظل الأردلانيين نشاطات ثقافية وشعرية مزدهرة. وكانت الصوفية جزءً لافتاً من النسيج الداخلي لهذه الإمارة الكُردية في غرب إيران.

وإذا صحّ اعتبار الثقافة المزدهرة وتنامي الحركة الشعرية والأدبية إشارة إلى تبلور البدايات الأولى لحركة قومية كُردية في منطقتي السليمانية وأردلان في القرن التاسع عشر، فإن إتساع نطاق الإنتفاضات ضد الدولة العثمانية في مناطق رواندوز (١٨٣٤) وبهدينان وبوتان (١٨٤٧) وشمدينان (١٨٨٠)،

أشار في شكل جلي الى بروز تململ قومي أوسع في نسيج المجتمع الكُردي في هذه المناطق.

والواقع أن الإنتفاضة الأخيرة التي قادها الشيخ عبيدالله نهري في منطقة شمدينان شمال بارزان دعت الى إنشاء كيان كُردي مستقل عن الإمبراطوريتين العثمانية التركية والقاجارية الإيرانية. وكان الشيخ عبيدالله نظّم في قريته إجتماعاً لرؤساء عشائر كُرد لغرض التهيئة للإنتفاضة. ومعروف أن شيوخ بارزان أقاموا علاقات طيبة مع الشيخ النقشبندي عبيدالله وآبائه.

وعلى الصعيد العثماني، كانت الإمبراطورية دخلت، آنذاك، نفق تفكك داخلي هائل نتيجة عوامل إقتصادية وسياسية وعسكرية عدة من أهمها إستشراء الفساد المالي والاداري في اجهزتها وتزايد ديون الدولة الخارجية وتوجهها الى إيذاء الأهالي وتحميلهم أعباء ثقيلة عن طريق الضرائب. وكان الضعف الحاصل في المركز، يشجع الولاة المحليين للدولة العثمانية على إستيفاء ضرائب باهظة من فلاحي المناطق النائية، خصوصاً من فلاحي الشعوب غير التركية.

أما من ناحية الأوضاع العسكرية والسياسية، فإن منطقة البلقان كانت تخضها إنتفاضات قومية ضد سلطة العثمانيين. بينما إنتعشت في سورية ومصر حركات قومية عربية تبغي الخروج عن النير العثماني. وكان عبدالرحمن الكواكبي في سورية وأحمد عرابي في مصر مثالين في ذلك الخصوص. أما الصراعات التركية-الإيرانية والحرب التركية-الروسية بين عامي (١٨٧٧-١٨٧٨) فإنهما أثّرتا بعمق في زعزعة إستقرار الامبراطورية ومستقبلها. هذا إضافة الى إمتداد النفوذ الدولي، الإقتصادي والمالي والسياسي، الى نسيج الكيان الإمبراطوري العثماني، خاصة نفوذ بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

هيّأت هذه الأجواء برمتها حاضنة طبيعية لتحولات سياسية وثقافية في المجتمع الكُردي وتعاظم الدعوات الإصلاحية والقومية بين فئاته الإجتماعية. وما حضّ على هذه التحولات، أن وتيرة الحملات العسكرية العثمانية ضد العشائر الكُردية تسارعت، فيما أخذ السلاطين الأتراك يحاولون بمختلف الوسائل صهر التكوين الإجتماعي والثقافي والإقتصادي الكُردي في بوتقة

دولتهم المركزية.

والحقيقة أن المدن التركية الكبرى، وبالذات اسطنبول، كانت تعيش في تلك الفترة حركة تنويرية وإصلاحية وقومية واسعة نتيجة التحولات الإجتماعية والإقتصادية الداخلية من جهة، والضعف الهائل الذي اصبحت عليه الدولة العثمانية من جهة ثانية. إضافة الى إمتداد أفكار التحرر الأوروبية وتزايد وتيرة التغلغل المالي والإقتصادي والثقافي الأوروبي في النسيج العثماني من جهة ثالثة. والواقع أن المتنورين الكُرد في اسطنبول كانوا جزءً حيوياً من تلك الحركة التي إتخذت في البداية شكل تعاون مشترك مع المتنورين الأتراك في إطار جمعيتي (تركيا الفتاة) و(الإتحاد والترقي) التركيتين.

في هذا الصدد، تصح الإشارة الى عدد من المبادرات التنويرية الكُردية في اسطنبول، منها جمعية (تعالي وتقدم كُردستان) في ١٩٠٨، وجمعية (هيڤي - الأمل) في العام نفسه، وقبل ذلك صدور صحيفة (كُردستان) في القاهرة في ١٨٩٨ ومجلة (روژي كورد) في ١٩٠٨ و(هتاڤي كورد - شمس الكرد) في ١٩١٢.

يذكر الباحث الأكاديمي الكُردي الدكتور كمال مظهر أحمد في كتابه (كُردستان خلال سنوات الحرب العالمية الأولى) أن الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية السيئة لكُردستان كانت تحفز الكُرد وتثير مشاعرهم القومية. ويضيف أن هذه المشاعر وصلت في السنوات التي سبقت إندلاع الحرب، حد مطالبتهم في النشاطات السياسية والإجتماعية والثقافية بالإستقلال عن الإمبراطورية العثمانية أو الحصول على نوع من الحكم الذاتي[٢٦].

في هذا الفضاء، يصح اعتبار نزوع البارزانيين الى مزج دعوتهم الدينية الصوفية بأفكار التحرر القومي والإجتماعي بمثابة إمتداد للتغييرات التي شهدها المجتمع الكُردي في تلك الفترة. وكانت هذه الأفكار بدأت في صورتها الحديثة تصل الى النسيج الكُردي عبر تركيا التي إستقبلت بدورها موجات هذه الأفكار من أوروبا بعد ثورتها الصناعية الكبرى في القرن الثامن عشر،

(٢٦) مظهر، كمال أحمد: كُردستان خلال الحرب العالمية الأولى، باللغة الكُردية، مطبعة المجمع العلمي الكُردي، بغداد ١٩٧٥، صفحة ٣٣.

والامبراطورية الروسية اعتباراً من القرن التاسع عشر. وقد تحولت بارزان في بداية القرن العشرين، وفي خضمّ هذه التفاعلات، الى بؤرة ناشطة للحركة القومية الكُردية[٢٧].

وفي هذا الخصوص يذكر الأمير الكُردي عبدالرزاق بدرخان (أعدمه الجيش التركي في ١٩١٨) في مذكراته أنه أسس بالتعاون مع روسيا في مدينة (خوي) في أقصى شمال غربي إيران مدرسة ضمّت ثلاثين طالباً كُردياً، مشيراً الى أنه كان على إتصال عن طريق الرسائل مع شيخ بارزان[٢٨].

لكن تركيا لم تكن وحدها النافذة التي أتت منها رياح التغيير نحو كُردستان، بل أن إيران القاجارية شهدت بدورها نشوء حركة دستورية واسعة اعتباراً من ١٩٠٥ عُرفت بحركة المشروطية. هذا في حين تجسد الفرق الأوضح بين الحركتين الدستوريتين التركية والإيرانية أن الأخيرة تولاها في قم وطهران الإيرانيتين والنجف والكوفة العراقيتين رجال دين شيعة متنورون، بينما تولاها في تركيا السنّية وبين الكُرد السنّة متنورون ومتعلمون وعدد من شيوخ الطرق الصوفية.

وعلى رغم أن الحركتين، التركية والإيرانية، مهدتا السبيل، في ما بعد وعبر عملية سياسية وثقافية معقدة، لنشوء مشروعين قوميين عسكريين: الأول تحت قيادة الضابط العسكري التركي مصطفى كمال أتاتورك الذي اسس جمهوريته في ١٩٢١ بعد إنتصاره في حرب الإستقلال ضد اليونان في ١٩١٩ – ١٩٢٠. والثاني تحت قيادة رئيس أركان الجيش الإيراني العقيد رضا خان (بهلوي) الذي إنقلب على القاجاريين وأسس مملكة إيرانية حديثة في طهران في ١٩٢٦. واللافت أن المشروعين القوميين التركي والإيراني سرعان ما إنقلبا على الكُرد بهدف منعهم من تأسيس مشروعهم القومي الخاص، وصبغا المشهد

(٢٧)
Bruinessen, Martin van: Religion in Kurdistan, Kurdish Times, Vol. 4 Nos. 1&2, – Summer-Fall 1991, P5-28.

(٢٨) مذكرات عبدالرزاق بدرخان، ترجمة وإعداد جليلي جليل، ترجمه الى الكُردية – اللهجة الكرمانجية الجنوبية شكر مصطفى، دار ئاراس للطباعة والنشر، أربيل ٢٠٠٠، صفحة ٢٤.

الكُردي بدم قومي كثير، إلا انهما لعبا مع ذلك كله، دوراً مؤثراً وعميقاً في إستنهاض الوعي السياسي والإصلاحي والقومي بين القوميات المضطهدة في الشرق الأوسط ومنهم العرب والكُرد.

الباني الأول: الشيخ عبدالسلام بارزاني

تسنّم الشيخ عبدالسلام بارزاني الثاني (١٨٨٢-١٩١٤) المشيخة الصوفية النقشبندية في بارزان في ١٩٠٣ بعد وفاة والده الشيخ محمد. وكانت المشيخة تمرّ في تلك الفترة بإحدى أهم مراحلها من ناحية الإزدهار والحيوية. هذا في الوقت الذي كانت فيه الحلقات والمراكز التنويرية الكُردية الحديثة في اسطنبول تنهمك بدورها في الإضطلاع بدور فاعل ضمن إطار الحركة القومية الكُردية.

واللافت أن التطور الجديد الذي أدخله الشيخ عبدالسلام في بنية المشيخة لم يقتصر على ترسيخها وتوسيع قاعدتها وتنظيم حياتها الداخلية فحسب، إنما تجاوز ذلك الى تحولين متلازمين وهامين آخرين:

الأول: نجاحه في تحويل المشيخة من بؤرة محلية ومناطقية تعيش مع شيوخها وتموت مع موتهم، الى مشيخة متجددة ذات قدرة ملحوظة على التواصل والديمومة حتى بعد وفاة مرشدها المتنفذ.

والثاني: نجاحه في تحويلها من مشيخة صوفية-دينية بحتة الى مرجعية صوفية-سياسية قومية منفتحة على أفكار الإصلاح، مع الإحتفاظ، طبعاً، بجوهرها الصوفي. وعلى رغم أن الفضل في وضع اللبنات الأولى لهذين التطورين يعود، في الاصل، الى الشيخ محمد إلا أن الأكيد أنهما إتخذا صورتهما النهائية على يد الشيخ عبدالسلام الثاني.

في هذا الخصوص، يرى باحثون مختصون في الشأن الكُردي أن الشيخ عبدالسلام هو الباني الحقيقي لدور عشيرة بارزان على صعيد الزعامة السياسية الكُردية. ويشير هؤلاء[٢٩] عند حديثهم عن شخصيته، الى أنه تمتع

(٢٩) أنظر: إسماعيل، زبير بلال: ثورات بارزان ١٩٠٧-١٩٣٥، الطبعة الأولى، مطبعة وزارة الثقافة، أربيل ١٩٩٨

بذكاء حاد وأفق سياسي واسع وإهتمام لافت بنشر العلم وفتح المدارس.

ويروي المستشرق الاسكتلندي ويگرام أن الشيخ عبدالسلام حين سمع أنه عائد الى إنگلترا بعد أشهر قليلة، أبدى إستعداده لمرافقته، لكي يطلب شخصياً من رئيس أساقفة كانتربري البروتستانتية فتح مدارس تعليمية في قرى بارزان. وكذلك يقصد الملك جورج ويجلس معه للبحث في قضية كُردستان والبتّ في أمر إستقلالها[٣٠]. الى ذلك يسجل ويگرام أن الشيخ عبدالسلام قال له: لقد ذهبتم الى الهند وبقيتم هناك مع أنهم لايريدونكم. لماذا لاتأتون الى هذه البلاد فأهلها يريدون التعلم منكم[٣١].

أما مسعود بارزاني فيشير في كتابه الى عدد من إصلاحات الشيخ عبدالسلام بينها إلغاء الملكية الخاصة والمهر والزواج القسري، وتوزيعه الأراضي على الفلاحين، إضافة الى تنظيمه العلاقات الإجتماعية بين البارزانيين على أساس من العدل[٣٢].

على صعيد ذي صلة، يؤكد المؤرخ العراقي صديق الدملوجي الذي عاصر الشيخ عبدالسلام وزار تكيته الصوفية، ثم إلتقاه في سجن الموصل قبيل إعدام الشيخ في ١٩١٤، إنه كان ذكياً للغاية، حاد الذهن، سريع البديهة، وكان يظهر أسفه على حرمانه من التعليم المدرسي[٣٣]. الى ذلك، يشير الى أن تكية بارزان في عهده كانت تتسلم صحفاً وبيانات تصدرها الجمعيات والنوادي السياسية والإجتماعية الكُردية. وكانت فكرة الإصلاح السياسي في تلك الحقبة شملت معظم أبناء الكُرد وأخذوا ينادون بها في السر والخفاء[٣٤].

أما المستشرق الروسي الاصل، فاسيلي نيكيتين، فيلفت من ناحيته الى أن الشيخ عبدالسلام تابع تنامي الوعي القومي في صفوف المثقفين الكُرد وحاول إقناع وجهاء منطقة بهدينان بوجهة نظره الإصلاحية. كذلك يؤكد أن الشيخ عبدالسلام نال إحترام جميع الفرق والطوائف الدينية، وكان متواضعاً يكرر

(٣٠) ويگرام، الترجمة العربية، صفحة ١٢١ .
(٣١) ويگرام، الطبعة الإنجليزية، صفحة ١٤٥ .
(٣٢) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٧-١٨ .
(٣٣) الدملوجي، المصدر نفسه، صفحة ٨٢ .
(٣٤) الدملوجي، المصدر أعلاه، صفحة ٨٥ .

القول: أنا شاب قليل التجربة وبحاجة الى التعليم والدروس، مضيفاً أن الشيخ كان شاباً جميلاً ذا شخصية جذابة جداً، يدعو الكُرد الى التضامن والوحدة، مردداً: إتحدوا وتضامنوا في ما بينكم، وعندذاك لن يستطيع أحد قهركم[٣٥].

الى ذلك يؤكد الباحث بيرش أن الشيخ عبدالسلام تجاوب مع الجمعيات والمنظمات الكُردية في تلك الفترة وأيّد برامجها لاسيما بعد أن نكلت جمعية الإتحاد والترقي التركية بالكُرد[٣٦]. أما كريم أحمد السكرتير العام للحزب الشيوعي الكُردستاني الذي كتب عن تلك الفترة فيشير الى أن الشيخ عبدالسلام أقام علاقة سياسية مع الفرع الكُردي لمنظمة تعالي وترقي وجمعية هيفي الكُرديتين[٣٧].

غير أن الشيخ لم يقتصر في نشاطاته على قوة عشيرته، على رغم أن أفرادها عرفوا بطاعتهم البالغة لشيوخهم وإستعدادهم الدائم للعمل وتنفيذ الأوامر[٣٨]. بل الأرجح أن أفقه القومي دفعه الى البحث عن طرق ووسائل أخرى تمكنه من توسيع دائرة حركته وشمولها عشائر ومناطق كُردية أخرى. في هذا الشأن يلمّح بيرش الى أن إتساع الحملات التركية ضد الكُرد أقنعت الشيخ عبدالسلام بتوسيع دائرة تحالفاته والإنتقال بين العشائر الأخرى وزيارة رؤسائها داعياً إياهم الى الإتحاد والتكاتف[٣٩].

كذلك يشير مسعود بارزاني الى أن الشيخ عبدالسلام رأس في ربيع عام ١٩٠٧ إجتماعاً لشيوخ الصوفية ورؤساء العشائر في دار مرشد الطريقة القادرية الشيخ عبدالقادر بريفكاني في قرية بريفكان، موضحاً أن الإجتماع أسفر عن إتفاق الحاضرين على تفويض الشيخ عبدالسلام توجيه مذكرة الى الحكومة العثمانية تتضمن عدداً من المطالب القومية ليس أقلها جعل اللغة

(٣٥) ف. نيكتين: العائلة البارزانية، ترجمة الدكتور كاوس قفطان، مجلة شمس كُردستان، العدد الخامس، بغداد ١٩٧٣.
(٣٦) بيرش، المصدر نفسه.
(٣٧) كريم، المصدر نفسه، صفحة ٦٠٤
(٣٨) كريم، المصدر أعلاه، صفحة ١٠٨.
(٣٩) بيرش، المصدر نفسه، صفحة ٩١.

الكُردية لغة رسمية في كُردستان[٤٠].

لكن السلطات العثمانية التي كانت تعمل على تطويع العشائر الكُردية لم تستسغ هذه المذكرة، إنما اعتبرتها إشارة الى تصاعد الدور السياسي للشيخ عبدالسلام وتعاظم نفوذه بين العشائر من جهة، وخروجه على الطاعة العثمانية من جهة ثانية، ودعوته الى فصل المناطق الكُردية عن كيان الإمبراطورية من جهة ثالثة.

لهذا كلّه، سارع العثمانيون الى تبني الخيار العسكري في ردّهم على تطلعاته، بادئين بتعيين ولاة قساة على منطقتي بارزان وبهدينان أطلقوا يدهم في الإجراءات التي صمموا عليها[٤١]. في ما بعد، وبالذات في نهاية ١٩٠٧ توّجوا هذه السياسة بإرسال قوة عسكرية كبيرة بقيادة الفريق محمد فاضل الداغستاني لمهاجمة بارزان.

قاوم البارزانيون الهجوم العثماني الجديد مدة شهرين. لكن الجيش الذي كان مدعوماً بمدافع جبلية، إستطاع في نهاية المطاف فرض سيطرته على المنطقة وإحراق قرية بارزان والقرى المحيطة بها وإعتقال النساء والاطفال. أما الشيخ عبدالسلام فإضطر للإنسحاب مع مقاتليه الى الجبال المحيطة بالمنطقة. هذا في حين إعتقلت السلطات العثمانية العوائل البارزانية وبينهم والدة الشيخ عبدالسلام وشقيقه مصطفى الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره آنذاك ووضعتهم في سجن مدينة الموصل.

بارزان: التسامح الديني

في خضم الإنتفاضات والعمليات القتالية التي عصفت بمنطقة بارزان ظلَّ الشيخ عبدالسلام حريصاً على الإحتفاظ بدعوته الى التسامح والأخوة والمساواة. وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة الإهتمام الكبير الذي أولاه بإدامة علاقات التآلف الديني والثقافي والإجتماعي مع التكوينات الدينية المختلفة في منطقته. وفي دلالة واضحة على الرؤية المنفتحة للشيخ عبدالسلام يصح

(٤٠) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٨-١٩
(٤١) الدملوجي، المصدر نفسه، صفحة ٨٨

إيراد أمثلة غير قليلة تشير الى تسامحه الديني، أبرزها محاولته إقناع المستشرق اللاهوتي الأسكتلندي ويگرام بفتح مدارس تعليمية في المنطقة الكُردية لتعليم الأطفال الكُرد كما سبق القول.

والواقع أن ويگرام الذي عاين حال المسيحيين في منطقة بارزان وتحدث الى كثيرين منهم، اعتبر أن الشيخ عبدالسلام هو موضع ثقة في تطبيق العدالة وتأمين المساواة التامة بين الكُردي، المسلم والمسيحي على السواء، وهذا ما جعل المسيحيين ينعمون بالأمن والحصانة من الإضطهاد والنهب والسلب في عهده، مضيفاً أن عدالته الدينية هي السبب في أن العثمانيين وموظفيهم يكرهونه[٤٢]. بل أن ويگرام لم يتردد عن إطلاق إسم (شيخ النصارى) على الشيخ عبدالسلام تجسيداً لدوره في إنصاف المسيحيين ورعاية أوضاعهم وحماية أمنهم[٤٣].

الى ذلك، يذكر مسعود بارزاني أن الشيخ عبدالسلام إلتجأ بعد هجوم القوات العثمانية على بارزان في عام ١٩٠٧ الى قرية (تياري) المسيحية في جنوب شرقي تركيا وإستقر في منزل مار شمعون زعيم الآثوريين الى حين عودته الى منطقته في العام التالي[٤٤].

وما زاد من أهمية التسامح الديني في دعواته، أن الفترة التي نشط فيها شهدت إجتماع غيوم إبادة الأرمن في أفق الدولة العثمانية. وعلى رغم أن عدداً من الباحثين والأوساط السياسية يحمّلون عشائر كُردية مسؤولية المشاركة في تقتيل الأرمن لدوافع دينية في العقدين الأولين من القرن العشرين، إلا أن الوقائع التاريخية تكشف أن عشائر كُردية كثيرة، في مقدمها العشيرة البارزانية، دافعت بشدة عن الأرمن في وجه الحملات العثمانية. وكان لنظرة الشيخ عبدالسلام التسامحية دور كبير في توسيع رقعة التسامح الديني في المجتمع الكُردي، نتج عنه في ما بعد، ما يشبه

(٤٢) ويگرام، الترجمة العربية، المصدر نفسه، صفحة ١١٥
(٤٣)
Edgar' T.A. and W.A. Wigram. The Cradle of Mankind: Life in Eastern Kurdistan . London: A&C. Black. 1992. P153.
(٤٤) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٩

إنعدام دعوات التشدد والتطرف الديني بين الكُرد. وهذا ما يمكن ملاحظته الى الوقت الراهن.

وفي إستكمال لافت لتلك النظرة، يمكن التذكير بأن الشيخ أحمد بارزاني شقيق الشيخ عبدالسلام ووريثه في المشيخة الصوفية في بارزان في ١٩١٤، أرسل في ١٩٢٠-١٩٢١ قوة مسلحة من المقاتلين البارزانيين الى تركيا لنجدة الأرمن الذين كانوا يتعرضون الى حرب إبادة جماعية شاملة. وبالفعل استطاعت القوة البارزانية إنقاذ عوائل أرمنية عدة من براثن المذبحة الدموية بينها عائلة اندرانيك باشا أحد زعماء الأرمن(٤٥).

لكن التسامح الديني لم يكن الإنجاز الإنساني الوحيد للشيخ عبدالسلام. إنما الواضح أنه خصص، كذلك، إهتماماً كبيراً بالإصلاحات الإقتصادية والإجتماعية والتعليمية في منطقته. وكانت أولى خطواته على هذا الطريق تشجيعه التعليم وإقناعه السلطات التركية بفتح مدرسة في قرية بارزان في ١٩١٠، وتوزيعه الأرض على الفلاحين.

عند الحديث عن إصلاحات الشيخ عبدالسلام وأفقها التطبيقي على أرض الواقع، لابد من الأخذ في عين الإعتبار، الصعوبات التي أحاقت بتجربته نتيجة الموقف العدائي الذي وقفته الدولة العثمانية. وكان إستمرار القوات العثمانية في حملاتها العسكرية وتدميرها بارزان عدة مرات، صوراً واضحة عن تلك الصعوبات.

في هذا الخصوص، يشير ويگرام الى أن الشيخ عبدالسلام لم يكن الطرف الملام في العمليات القتالية التي طالت المنطقة الكُردية، إنما المذنبون الحقيقيون كانوا ولاة الموصل وبعض رجال العصابة المتفسخة الذين كانوا يتولون الإدارة فيها. فهؤلاء، بحسب ويگرام، طمعوا في بعض القرى التي تقع ضمن نفوذ الشيخ عبدالسلام، لكن شيخ بارزان أبى أن يفارق هذه القرى ويتنازل عنها للعثمانيين(٤٦).

(٤٥) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٢٤
(٤٦) ويگرام، الترجمة العربية، المصدر نفسه، صفحة ١١٥

في ذلك كلّه، لم يكن الشيخ عبدالسلام داعية حلّ المشاكل مع العثمانيين عبر القتال. بل أنه فضّل التوصل الى حلول سلمية تصالحية معهم. وفي هذا المنحى عقد في ربيع عام ١٩١٠ صلحاً مع العثمانيين. وكان من شأن ذلك أن يهيّء أمامه فرصة جيدة لإعادة ترتيب علاقاته وصلاته مع الجمعيات الثقافية والسياسية الكُردية في اسطنبول والمدن الكبيرة الأخرى من جهة، وتجاوز الخلافات العشائرية والقبلية التي نشأت خلال سنوات الإنتفاضات المتكررة ضد العثمانيين من جهة ثانية.

في السياق نفسه، يشير أكثر من باحث الى نجاح الشيخ عبدالسلام في تطبيع علاقاته مع السيد طه نهري رئيس عشيرة نهري وإسماعيل آغا (سمكو) رئيس عشيرة شكاك ورؤساء عشائر أخرى في بجيل جنوب بارزان وبرادوست شرقها.

وفي السنوات القليلة اللاحقة لم يعد العثمانيون يتخوفون من توجهات الشيخ عبدالسلام نحو تقوية نفوذه الداخلي والعشائري فحسب، بل بدأوا يتخوفون من عزمه على تنشيط البعد الدولي للحركة القومية الكُردية. وكانت تخوفاتهم في هذا الإتجاه تنبع من محاولة الشيخ الإتصال بحكومة روسيا القيصرية. وما زاد منها أن روسيا كانت تتطلع منذ عقود نحو الإمتداد جنوباً على حساب الدولة العثمانية. هذا في الوقت الذي كان العالم يتجه فيه نحو أزمة عميقة وصراعات متفاقمة تهدد بإنفجار حرب عالمية.

والواقع أن الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٤ شهدت إنتشار سخط كبير بين القوميات غير التركية في إطار الدولة العثمانية. والواضح أن السبب الرئيسي في هذا السخط تمثل في سياسات التتريك غير الحكيمة التي إتبعتها حكومة عصبة الإتحاد والترقي التركية.

في هذا الإتجاه، يشير الباحثان ماريون فاروق سلكليت وبيتر سلكليت في دراسة مشتركة الى أن هذا السخط وصل أجزاء واسعة في الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية. وينقل الباحثان عن تقارير للقنصل الفرنسي في حلب، أن هذه المدينة التي هي ابعد من أن تكون مرتعاً للعروبة، إنتشرت فيها موجات من المشاعر الإنفصالية والموالية لبريطانيا بين عناصر من سكانها المسلمين في

ربيع عام ١٩١٣[٤٧].

في هذه الأثناء، إندلعت في منطقة (قره سو) في بتليس الكُردية إنتفاضة واسعة في ١٩١٣ بقيادة الشيخ سعيد علي. وعلى رغم أن الدولة العثمانية إستطاعت إخمادها بسرعة وإعتقال زعيمها وعدد من قادتها الميدانيين وإعدامهم في السابع من آيار من العام نفسه، إلا أنها ظلّت تلح على أن تحقيقاتها في خلفيات الإنتفاضة تثبت ضلوع الشيخ عبدالسلام في الإنتفاضة وعلاقاته الوثيقة مع زعمائها[٤٨].

بعد هذا بأشهر قليلة، إندلعت إنتفاضة أخرى في منطقة بتليس في ربيع ١٩١٤ قادها ملا سليم أفندي. وتمثلت خطورة هذه الإنتفاضة في أنها إنتشرت بسرعة كبيرة وأيّدها عدد من رؤساء العشائر الكُردية الى أن وصل عدد مقاتليها الى ثمانية آلاف مقاتل. كما أنها حاولت الحصول على دعم الآثوريين والأرمن ضد الدولة العثمانية[٤٩]. لكن الهجمات العسكرية المتلاحقة للعثمانيين أدت في نهاية نيسان ١٩١٤ الى سحق الإنتفاضة ولجوء قائدها ملا سليم الى القنصلية الروسية في بتليس.

في الفترة عينها كانت منطقة بارزان تعيش توتراً وإضطراباً واضحين. هذا في الوقت الذي إجتمع فيه فلاّحو المنطقة حول زعامة الشيخ عبدالسلام الذي كان لايني يحضّ رؤساء العشائر على توحيد صفوفهم وممارسة الضغط على اسطنبول لإجبارها على التخلي عن سياسة تجاهل القضية الكُردية. ويذكر الدكتور كمال مظهر أحمد أن الشيخ عبدالسلام بدأ في ربيع عام ١٩١٤ بالتمهيد لإطلاق إنتفاضة جديدة وضمان دعم روسيا القيصرية وبريطانيا للمطالب الكُردية[٥٠].

(٤٧) القومية: مرض العصر أم خلاصه؟ مجموعة باحثين أوروبيين وعراقيين، أعدّه للنشر: فالح عبدالجبار، مقال: منابع نشوء القومية العربية في المشرق ونزعة العروبة في العراق، ماريون فاروق سلكليت وبيتر سلكليت، دار الساقي، لندن ١٩٩٥، صفحة ١٢٩.

(٤٨) حمدي، وليد: كُردستان والأكراد في الوثائق السرية البريطانية، باللغة الفارسية، إيران، همدان ١٣٧٨ (التقويم الإيراني) ١٩٩٩ (الميلادي)، صفحة ١٦٦.

(٤٩) أحمد، كمال مظهر: المصدر نفسه، صفحة ٤٤ .

(٥٠) أحمد، كمال مظهر: المصدر نفسه، صفحة ٤٦ .

بدا العثمانيون، في هذا المقطع الزمني، في عجلة من أمر القضاء على الحركة الكُردية. وكان شعورهم أن الوقت لم يعد فيه متسع كاف للإنتظار، نتيجة إجتماع غيوم حرب عالمية، ما دفعهم الى إستئناف حملتهم العسكرية ضد بارزان وراوندوز وعقرة والعمادية في حزيران من العام نفسه. وكان هدف الحملة إعتقال الشيخ عبدالسلام. لكن الأخير رفض الإستسلام، مفضلاً مقاومة الهجوم ومن ثم الإنتقال الى كُردستان إيران والإستقرار في أطراف مدينة أورمية في شمال غربي البلاد.

والأرجح أن هذا الإنتقال الى الجانب الإيراني من الحدود لم يأت هرباً من بطش العثمانيين فحسب، إنما مثّل بداية محاولة من الشيخ عبدالسلام لإستغلال وجوده في مناطق قريبة من الحدود الروسية في إتجاه الإتصال بالسلطات القيصرية وزيارة مدينة تفليس (الروسية آنذاك) برفقة حليفه في كُردستان إيران إسماعيل شكاك. بالفعل إستطاع بعد فترة زمنية غير طويلة الوصول الى تفليس حيث إلتقى مندوب القيصر الروسي وبحث معه في شؤون الكُرد وتداول ايضاً في إمكان ضمان دعم روسي لإنتفاضته القومية.

والواقع أن هذه الزيارة كانت في حقيقتها أولى المحاولات الجدية في التاريخ الكُردي الحديث لإخراج الحركة القومية الكُردية من إطارها المحلي الى آفاق دولية. لكن روسيا التي تطلعت في تلك الفترة الى إقامة حلف حربي مع الدولة العثمانية ضد دول الحلفاء، تجنبت تقديم دعم ملموس الى الشيخ عبدالسلام رغم أنها لم تغلق الباب كلياً في وجهه.

أخافت هذه الزيارة العثمانيين كما لم يخفهم أي نشاط كُردي آخر في ذلك الشطر الزمني. ويذكر زبير بلال إسماعيل ان المخابرات التركية كانت ترصد حركات الشيخ عبدالسلام، وعلمت برحلته الى تفليس ومقابلته بعض المسؤولين الروس، لأن المنطقة التي استقر فيها الشيخ مع انصاره لم تكن بعيدة عن الحدود التركية. كما أن المخابرات نفسها تابعت إتصالات الشيخ برؤساء العشائر الكُرد بعد عودته من تفليس[٥١].

لذلك أعلن العثمانيون جائزة كبرى لمن يلقي القبض عليه حياً أو ميتاً. وفي

(٥١) اسماعيل: المصدر نفسه، صفحة ٦٢ .

هذا المقطع الزمني، الحساس على الأصعدة الكُردية والإقليمية والدولية، نجح العثمانيون في مسعاهم لإعتقال الشيخ عبدالسلام. وكان ذلك بعد أن دبرت له مجموعة من عملاء السلطة العثمانية مؤامرة في طريق عودته من تفليس أدت الى إعتقاله في إحدى القرى الكُردية القريبة من الحدود الإيرانية، حيث جرى تسليمه الى السلطات العثمانية التي لم تتردد عن إعدامه شنقاً مع عدد آخر من مرافقيه في الرابع عشر من كانون الأول ١٩١٤.

ويصف المؤرخ الموصللي، صديق الدملوجي، الذي إلتقى بالشيخ عبدالسلام في السجن، إعدامه في سجن الموصل بأنه عكس رنّة حزن وأسف عميقة عند الكُرد قاطبة، بمن فيهم الكُرد غير الموالين له(٥٢).

الشيخ أحمد: إستمرار الإنتفاضات

بعد إعدام الشيخ عبدالسلام، دخلت الحركة القومية الكُردية في مرحلة بالغة التعقيد والحساسية. والواقع أن أسباب هذا التعقيد إستمدت جذورها من دخول العالم في ذلك العام حقبة الحرب العالمية الأولى التي لم يمضِ وقت طويل حتى إندلعت في الثامن والعشرين من تموز ١٩١٤. وكانت منطقة الشرق الأوسط التي تقع كُردستان في قلبها الجغرافي إحدى أهم الساحات التي تأثرت بسنوات الحرب وما تمخض عنها من نتائج.

في عام ١٩١٤ تولى الشقيق الأصغر للشيخ عبدالسلام، الشيخ أحمد (١٨٩٦-١٩٦٩) مشيخة بارزان في وقت لم يكن تجاوز الثامنة عشر من عمره. وفي بداية توليه المشيخة إنهمك الشيخ أحمد في إعادة تنظيم صفوف عشيرته التي أنهكتها حملات الملاحقة والتشريد والقتل. والأرجح أن توليه المشيخة وهو في سنٍّ مبكرة وإفتقاره الى الخبرة الكافية جعلتاه ينتظر الى عام ١٩٢٧ حتى يعود الى تنشيط دور البارزانيين في الحركة القومية الكُردية.

لكن هذا لايعني أن الشيخ أحمد توقف عن التفاعل مع الحركة الكُردية. ففي ١٩١٩ وجّه قوة من أتباعه الى نجدة الشيخ محمود الحفيد في السليمانية. وفي العام التالي وجّه قوة أخرى الى كُردستان تركيا لمعاونة

(٥٢) الدملوجي: المصدر نفسه، صفحة ٨٩

الشيخ سعيد پيران. وقوة ثالثة في مطلع العشرينات لنجدة الأرمن. لكن مع هذا ظلّت مناطق بارزان طوال أكثر من عشر سنوات هادئة في الوقت الذي كانت فيه الحكومة البريطانية منهمكة في تأسيس الدولة العراقية الحديثة اعتباراً من ١٩٢٠. والأرجح أن الشيخ أحمد، كان في حال إنتظار لما يمكن أن تسفر عنه وعود بريطانيا الخاصة بتحقيق مطالب الشعوب المتحررة من النير العثماني.

في هذه الفترة، كانت الحركة القومية الكُردية تعيش تفاعلات متباينة. وما زاد من حدَّة هذه التفاعلات أن القوات البريطانية دخلت شط العرب ونزلت في الفاو في بداية حملتها على العراق في تشرين الثاني ١٩١٤، لاحقاً قادتها هذه العملية نحو كُردستان الجنوبية. وحين وضعت الحرب أوزارها بعد قبول الأتراك العثمانيين بهدنة مندرس في ١٩١٨، كان البريطانيون إحتلوا الجزء الأكبر من كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق).

أطلق البريطانيون والاميركيون والفرنسيون خلال سنوات الحرب وعوداً وتصريحات كثيرة حول حق الشعوب المتحررة في تقرير مصيرها وتشكيل كياناتها الوطنية. وكان أشهر هذه الوعود، البنود التي أعلنها الرئيس الأميركي ودرو ولسن حول حق الشعوب في تقرير المصير.

في إطار هذه الحالة، تصح الإشارة الى قيام الشيخ محمود الحفيد (١٨٨٣-١٩٥٦)(٥٣) في عام ١٩١٩ بتأسيس إدارة كُردية في منطقة السليمانية تحت الإشراف البريطاني. كذلك زيارة المندوب الكُردي السفير العثماني السابق في السويد، الديبلوماسي شريف باشا خندان (١٨٦٥-١٩٤٥) الى پاريس في ١٩١٩ للمشاركة في مؤتمر الصلح وطرح المطالب الكُردية في بناء كيان قومي مستقل. وكانت نتيجة هذه المشاركة أن المعاهدة التي تمخضت عن المؤتمر في آب ١٩٢٠ (معاهدة سيڤر) نصّت على حق الكُرد في شمال خط بروكسل، الوهمي، في حكم ذاتي قابل للتحول الى الإستقلال التام، مع السماح لسكان كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق) بالإنضمام الى

(٥٣) حفيد الشيخ معروف النودهي شيخ الطريقة القادرية في أطراف السليمانية في عهده. ونجل الشيخ سعيد.

هذا الحكم في حال رغبتهم(٥٤).

لكن البريطانيين الذين أخذوا يبحثون عن ملك يولونه عرش العراق، لم تتميز سياستهم إزاء الكُرد سوى بالغموض والتذبذب من جهة، وغلبة مصالحهم الإقتصادية على آفاقها. وفيما الموقف البريطاني على هذه الشاكلة، أخذت الأجواء الإقليمية والدولية تضيق أمام الحركة القومية الكُردية. وكانت أصداء المذابح الأرمنية التي اقترفتها السلطات العثمانية في الفترة بين عامي ١٩١٤-١٩٢١ لاتزال طريّة في الأذهان. لهذا لم يكتف الكُرد بالتعبير عن رغباتهم القومية عن طريق الخطاب السياسي فحسب، بل بدأوا في إنتهاج طريق المقاومة المسلحة ايضاً.

والحقيقة أن مقتل حاكم الموصل البريطاني الكولونيل بيل وحاكم عقرة الكابتن سكوت في منطقة بارزان في أواخر ١٩١٩، أعطى مثالاً واضحاً على شعور الإحباط الذي سكن الكُرد تجاه سياسة بريطانيا. لاحقاً، أسهمت هذه التحركات في حضّ عشائر وقطاعات سكانية كُردية أخرى على توسيع إنتفاضاتهم ضد البريطانيين.

ويروي الباحث السوڤياتي كاتلوف أن إنتفاضة الشيخ أحمد بارزاني في ١٩١٩ لعبت دوراً كبيراً في تعبئة الناس عرباً وكُرداً للمعارك المقبلة ضد البريطانيين(٥٥). ويشير كذلك الى تأثيرات تلك الإنتفاضة على منطقة بالك القريبة من رواندوز التي ثارت فيها في العام نفسه إضطرابات في وجه البريطانيين بقيادة أحد رؤساء عشائرها (يوسف بك)، وعلى رفض عشيرة غويان في منطقة زاخو وعشائر أخرى في خانقين ورانية التعاون مع البريطانيين(٥٦).

تصح في هذا الصدد الإشارة الى أن جزءً من هذه التحركات كان له علاقة بتشجيع تركي أو بخشية العشائر والإقطاعيين الكُرد من إمتداد النفوذ

(٥٤)
Vanly, Ismet Sheriff: Kurdistan In Iraq. P161.

(٥٥) ل. ن. كاتلوف: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ترجمة الدكتور عبدالواحد كرم، بغداد ١٩٨٥، صفحة ١٥٦.

(٥٦) زبير: المصدر نفسه، صفحة ٩٠

البريطاني الى مناطقهم. لكن المشكلة أن عدداً من المؤرخين العراقيين فسروا الإنتفاضات الكُردية في هذه الفترة، بما فيها الإنتفاضة اللاحقة للشيخ أحمد بارزاني في ١٩٢٧، من زاوية أحادية مفادها أنها أشّرت الى سخط الكُرد على إمتداد الإدارات المحلية الى مناطقهم. هذا بينما ترجح الوقائع أن هذه الإنتفاضات تمتعت بمحتوى قومي وإندلعت لأسباب من أهمها الغبن القومي الذي لحق بالكُرد.

وما يؤكد ذلك أن الكُرد لم يشاركوا في الإستفتاء الذي جرى لتنصيب الملك فيصل الأول في ١٩٢٠. كما أخذوا يتلمسون نتائج تراجع بريطانيا والعراق عن المادة الثالثة في إتفاقيتهما المشتركة الموقعّة في العاشر من تشرين الثاني ١٩٢٢ التي تضمنت موافقة بغداد على تنظيم قانون أساسي يأخذ في عين الإعتبار حقوق ورغائب ومصالح جميع السكان القاطنين في العراق من دون تمييز بينهم بسبب القومية أو الدين أو اللغة(٥٧).

لهذا كلّه تحرك الكُرد على الأصعدة السياسية والعسكرية. كما تحركوا في شكل منفرد، أو في شكل محاولات منسّقة مع الآثوريين لإقناع الأوساط البريطانية والدولية بأخذ المطامح القومية الكُردية في نظر الإعتبار. في فترة لاحقة إحتجوا بشدة على قيام عصبة الأمم بإلحاق كُردستان الجنوبية في ١٩٢٥ بالدولة العراقية الحديثة على الضد من إرادة شعبها أو على الأقل من دون إستمزاج رأيه.

والواقع أن معاهدة سيڤر التي تمخضت عن مؤتمر الصلح في پاريس نصت في ثلاثة من بنودها الرئيسية (٦٢ و٦٣ و٦٤) على حقوق كُردية واضحة. غير أن المعاهدة لم تعش طويلاً، إذ سرعان ما تراجعت عنها تركيا وبريطانيا والعراق وبقية الدول الكبرى لصالح إتفاقية (لوزان) في ١٩٢٣. وكان مصطفى كمال أتاتورك نجح في الخروج منتصراً من حربه ضد اليونان (١٩١٩-١٩٢١) وأسس جمهورية عسكرية مستقلة لوّحت بخيار التقارب مع الإتحاد السوڤياتي في حال استمرار العمل بإتفاقية سيڤر.

(٥٧) الحسني، عبدالرزاق: العراق في ظل المعاهدات، مطبعة دار الكتب، بيروت ١٩٨٣، الطبعة السادسة، الصفحة ٣٧.

والحقيقة أن تركيا لم تكن القوة البارزة الوحيدة في فضاء الشرق الأوسط المحيط بالكُرد. ففي إيران إنهمك العقيد رضا خان بدوره في تثبيت كيان دولة إيرانية عسكرية حديثة بعد وصوله في ١٩٢٣ الى السلطة عن طريق إنقلاب عسكري. أما في العراق، فكان البريطانيون في صدد تعزيز دعمهم لقيام دولة عراقية متماسكة عن طريق مساعدتها في بناء جيش حديث وعقد إتفاقيات عسكرية وأمنية معها بهدف القضاء على أي إعتراض داخلي أو مطامح خارجية.

في هذه الأثناء أصدر مجلس عصبة الأمم في ١٦ كانون الأول ١٩٢٥ قراراً نصّ على تسوية مشكلة ولاية الموصل (كُردستان الجنوبية) عن طريق ضمّها الى العراق. وفي الخامس من حزيران ١٩٢٦ عقدت تركيا والعراق وبريطانيا إتفاقية ثلاثية أكدت فيها الدول الثلاث إلتزامها قرار عصبة الأمم وإستعدادها للعمل بموجبه.

والأرجح أن الشيخ أحمد وجد أن الحال الكُردية أصبحت تتطلب تكاتفاً قومياً أقوى لمواجهة المخاطر المحتملة. وهذا ما دفعه الى حل خلافاته مع عشيرتي الزيبارية والسورجية. كما أقام علاقات قوية مع رئيس عشيرة شكاك إسماعيل آغا بهدف التنسيق المشترك لمواجهة الحكومتين العراقية والبريطانية. وكانت القوة الجوية البريطانية قصفت منطقة بارزان في خريف ١٩٢٢.

إنتفاضة عام ١٩٢٧

في عام ١٩٢٧ بدأت الحكومة العراقية تتعاون في شكل وثيق مع الإنتداب البريطاني من أجل مدّ نفوذ الدولة وإداراتها المحلية الى مختلف أرجاء البلاد، خصوصاً إرسال أجهزة الشرطة وإقامة المخافر في منطقة بارزان. وكان الهدف الواضح من هذه السياسة التضييق على نفوذ الشيخ أحمد بارزاني وتشديد قبضة الدولة المركزية على التنوعات الاثنية والدينية في كُردستان العراق.

والواقع أن بريطانيا بدأت منذ هذا العام بتكريس إهتمام استثنائي ببقاء المناطق الكُردية في إطار الدولة العراقية، حتى وإن تطلّب ذلك قمع تحركات

الكُرد وطموحاتهم وحقوقهم القومية بالحديد والنار. وكان السبب الرئيسي في ذلك أن شركة بريطانية إكتشفت أكبر الحقول النفطية في العالم الى ذلك الوقت قرب مدينة كركوك.

لكن المشكلة أن بغداد ولندن إنتهجتا طريقاً غير طريق التفاهم لتنفيذ مخططاتهما. وتجلى هذا في محاولة بريطانيا توطين الآثوريين في قرى بارزان. وكان الآثوريون تعرضوا الى ضربة عسكرية كبيرة في مواطنهم على يد مؤسس الدولة التركية الحديثة مصطفى كمال أتاتورك، ما دفع بالبريطانيين الى البحث عن وسيلة ممكنة لإسكانهم في مواطن البارزانيين شمال أربيل[٥٨].

والواقع أن البارزانيين تمتعوا على الدوام بعلاقات وطيدة مع الآثوريين وزعمائهم. وهذا ما دفع بهم الى تجنب الإصطدام معهم على رغم أن هؤلاء انتسبوا الى القوات البريطانية في كتائب عسكرية خاصة عُرفت بقوات ليفي. لكن بدلاً عن ذلك، وجّه البارزانيون أسلحتهم نحو القوات البريطانية والعراقية التي وقفت وراء خطة توطين الآثوريين وشجّعتها وحاولت تطبيقها عن طريق القسوة والإكراه.

يرى زبير بلال إسماعيل أن العامل المباشر لإندلاع إنتفاضة ١٩٢٧ هو قيام السلطات البريطانية بتنفيذ مشروع توطين الآثوريين في منطقة برادوست شمال شرق منطقة بارزان. لكنه يضيف أن العامل القومي أيضاً كان له دور لافت في الإنتفاضة. فقد أراد الشيخ أحمد إستئناف النضال القومي الكُردي الذي توقف في كُردستان الجنوبية بسبب إضطرار الشيخ محمود في ١٩٢٧ الى الإنزواء عند الحدود الإيرانية نتيجة الشروط التي فرضها البريطانيون والعراقيون عليه[٥٩].

يجدر ذكره أن الكُرد في ذلك الشطر الزمني كانوا يعيشون صدمة تراجع الحلفاء عن الوعود التي قطعوها في معاهدة سيڤر، ومن ثم إقدام القوات التركية على إخماد إنتفاضة الشيخ سعيد پيران في أطراف درسيم بالحديد

(٥٨) الحسني، عبدالرزاق: تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨، صفحة ٥٩.
(٥٩) زبير، المصدر نفسه. صفحة ٩٧ .

والنار وإعدام زعمائها في ١٩٢٥. هذه الأوضاع دعت بالجنرال الكُردي إحسان نوري باشا بالتعاون مع حزب (خويبون) الذي تأسس في بيروت في ١٩٢٧، الى إطلاق إنتفاضة في العام نفسه في جبال كُردستان تركيا إستمرت الى عام ١٩٣١.

في غضون ذلك، كانت الدولة العراقية تشعر أن يوم إستقلالها من الإنتداب البريطاني في عصبة الأمم أصبح قريباً، وكانت تخشى أن تتأثر طبيعة هذا الإستقلال في حال إستمرار الكُرد في إنتفاضاتهم، خصوصاً أن البريطانيين كانوا يعملون على تضمين ورقة الاستقلال العراقي فقرات تنص على ضمان حقوق الكُرد الثقافية ضمن الدولة العراقية من دون الإشارة الى حقوقهم السياسية. وأوضح إشارة الى هذه الخشية تتجسد في مذكرات رئيس أركان الجيش العراقي، آنذاك، طه الهاشمي الذي شكك في موقف البريطانيين من القضية الكُردية متسائلاً: لاأدري فيما إذا كانت الجماعة (يقصد بها بريطانيا – س ش) ترغب في أن تنشأ الفوضى في كُردستان بتأييدها الضمانات قبل دخول العراق الى عصبة الأمم(٦٠). ويقصد بها الضمانات الخاصة بحقوق الأقليات وبينها الكُرد في العراق.

وما زاد من هذه المخاوف العراقية أن مدينة السليمانية في كُردستان العراق شهدت في السادس من أيلول ١٩٣٠ تظاهرة كبيرة واجهتها السلطات العراقية بإنزال الشرطة والجيش الى شوارع المدينة، ما أدى الى سقوط عدد من القتلى والجرحى بين سكان المدينة. وكانت الإتفاقية العراقية البريطانية في الثامن عشر من تموز ١٩٣٠ قد خلت من الإشارة الى الحقوق القومية التي عيّنتها عصبة الأمم للكُرد في نصّ قرارها المتخذ في جلسة ١٦ كانون الأول ١٩٢٥(٦١).

قبل إتفاقية ١٩٣٠، وبالذات في التاسع والعشرين من شباط ١٩٢٩، قدّم ستة نواب كُرد مذكرة الى رئيس الوزراء العراقي إشتكوا فيها من أن حكومته

(٦٠) الهاشمي، طه: مذكرات طه الهاشمي ١٩١٩-١٩٤٣، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٧، صفحة ١٠.
(٦١) عبدالرزاق: المصدر نفسه، صفحة ٢٣٠

لم تنفذ في شكل ملائم توصيات عصبة الأمم في شأن إدارة المنطقة الكُردية. الى ذلك، طلب النواب في مذكرتهم زيادة ميزانية الإنفاق على التعليم في المنطقة الكُردية وتشكيل إقليم كُردي موحد من ألوية أربيل والسليمانية وكركوك والأقضية الكُردية التابعة للواء الموصل، إضافة الى تعيين منسق كُردي للتنسيق بين الحكومة المركزية والإدارة الكُردية(٦٢).

لاحقاً، أبرق عدد من المتنورين والسياسيين الكُرد الى عصبة الأمم مطالبين بإقرار الحقوق القومية الكُردية. وكان الكُرد وجّهوا عدداً كبيراً من الإحتجاجات الى الحكومة العراقية لأن المعاهدة العراقية البريطانية التي وُقّعت في ٣٠ حزيران ١٩٣٠ خلت من أية إشارة الى الإدارة الكُردية الخاصة التي كان الإنكليز وعدوا الكُرد بها(٦٣).

على هذا الصعيد، يقول الباحث البريطاني روجر أوين أن العراق إجتاحته موجة إعتراضات في عام ١٩٣٠ من جانب الأقليات والجماعات غير العربية حين أُعلن في عصبة الأمم أن العراق سيصبح دولة مستقلة بعد سنتين أي في عام ١٩٣٢(٦٤).

أما الباحث الكُردي الإيراني أمير حسن پور، فيشير الى أن توقيع الإتفاقية أدى الى سريان إضطراب عام في كُردستان، ما أفضى الى أن يوجّه الكُرد في السادس والعشرين من تموز من العام نفسه مذكرة أخرى الى عصبة الأمم للمطالبة بحقوقهم. وخلال شهري آب وتشرين الأول وجّهوا ثماني مذكرات إضافية الى العصبة في الخصوص ذاته(٦٥).

لكن بغداد لم تكن في وارد حلّ المشكلة الكُردية عن طريق تلبية الحد الأدنى من المطامح القومية للكُرد. بل كانت ترتاب في أمرهم وتنظر إليهم بإعتبارهم عنصر شغب ومشاكل للدولة العراقية. وينقل الدكتور المرحوم وليد

(٦٢) Hasanpour, Amir, Kurdish Times, Vol.4 Nos. 1&3, Summer 1991, The policy on the Kurdish language. P47.
(٦٣) كُردستان وكرد در إسناد محرمانه بريطانيا، كتاب باللغة الفارسية عن وثائق السفارة البريطانية في طهران عن الموضوع الكُردي. صفحة ١٢١
(٦٤) القومية مرض العصر أم خلاصه؟ المصدر نفسه، صفحة ١٤٠
(٦٥) أمير: المصدر نفسه، صفحة ٤٨ .

حمدي عن وثيقة بريطانية[٦٦] أن الملك فيصل الأول إجتمع في ٢٠ أيار ١٩٣٠ مع المندوب السامي البريطاني في العراق وتباحث معه في المسألة الكُردية ووضع الكُرد في كُردستان العراق. وكان المندوب السامي يحاول حثّ الملك على إتخاذ موقف إيجابي من قضايا الكُرد خاصة لجهة تعيين الموظفين منهم في كُردستان وإستخدام اللغة الكُردية كلغة رسمية حسبما إلتزمت بهما الحكومة العراقية في بيان رسمي صدر في هذا الخصوص من قبل مجلس الوزراء في ١١ تموز ١٩٢٣، وخطاب رئيس الوزراء العراقي في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٦.

ويشير التقرير الى أن الملك فيصل الأول ردّ على ذلك بقوله إنه في الوقت الذي يؤيد فيه سماح الحكومة بإستخدام اللغة الكُردية، إلا أنه لايطمئن الى نشاط بعض الجمعيات السياسية الكُردية، وأن وجود هذه الجمعيات في العراق يعرض علاقات العراق الى الإحراج مع إيران وتركيا، بحسب الملك فيصل الأول.

وإذ قضت الحكومة على إنتفاضة السليمانية بالحديد والنار، بدأت تتهيأ لمواجهة البارزانيين في أقصى شمال شرقي العراق. والحقيقة أن الإنتظار لم يطل، إذ شنت وحدات من الجيش والشرطة العراقية هجوماً على بارزان في التاسع من كانون الأول ١٩٣١ بدعم مباشر من القوة الجوية الملكية البريطانية. وكانت الذريعة الحكومية لهذا الهجوم أن الشيخ أحمد يرفض إقامة مخافر شرطة في منطقته، ما اعتبرته الحكومة تمرداً يبرر سوق القوة العسكرية ضده.

لم تستطع القوات العراقية والسلاح الجوي البريطاني قمع البارزانيين. إنما أسهم هذا القمع الدموي في إتساع موجات التعاطف مع إنتفاضة الشيخ أحمد، إضافة الى تعاظم الشعور القومي الكُردي في المدن وبين أوساط الطلاب والمثقفين الكُرد. وهذا في الوقت الذي خضّت الدولة العراقية مخاوف غير قليلة من إستغلال تركيا الكمالية وإيران الشاهنشاهية الورقة الكُردية

(٦٦) الدكتور وليد: الآكراد وكُردستان في الوثائق البريطانية – دراسة تاريخية وثائقية.
أنظر الوثيقة المرقمة: F0371 Note of Interview between the High Commissioner for Iraq and King Faysal on 29 May 1930.

لخلق مشاكل إضافية أمام العراق بهدف عرقلة نيله الإستقلال.

لهذا سارع مجلس الوزراء العراقي في جلسته المنعقدة في الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ الى إتخاذ قرار في شأن معاودة الهجوم العسكري على بارزان في ربيع العام التالي[٦٧].

بالفعل عادت القوات العراقية الى شنّ حملتها العسكرية ضد بارزان في اليوم المحدد. وكانت الحملة في حقيقتها إحدى أوسع وأشرس الحملات العسكرية ضد المنطقة بعد أن رفض الشيخ أحمد عرضاً من الحكومة العراقية بالإستسلام.

ويروي المؤرخ الكُردي رفيق حلمي في مذكراته أن مثلث رواندوز وزيبار وعقرة كان يمور بالحذر من نوايا البريطانيين وعدم جديتهم في تلبية الطموح الكُردي. ويشير الى أن رؤساء العشائر والمتنفذين الكُرد حاولوا إستمالة تركيا الى جانبهم لطرد القوات البريطانية. كذلك يؤكد أن الشيخ أحمد بارزاني كان أحد أهم المتنفذين الواقفين في وجه بريطانيا[٦٨]. الى ذلك يؤكد حلمي أن هذه القوة الشعبية التي برزت في مناطق كُردية مختلفة هي التي أجبرت البريطانيين على إعادة الشيخ محمود من منفاه في الهند الى السليمانية[٦٩].

واللافت أن الحكومة العراقية أرفقت حملتها العسكرية بحملة دعائية منظمة ضد البارزانيين أرادت منها عزلهم عن محيطهم الإسلامي والكُردي وتبرير هجماتها العسكرية المتلاحقة على منطقتهم. وكان الجوهر الرئيسي لتلك الحملة مفاده أن البارزانيين قوم جبليون يرفضون قبول الخدمات الإدارية التي تريد الحكومة المركزية إيصالها إليهم، وأنهم، أي البارزانيين، (قوم إنحرفوا عن الإسلام) و(تنصَّروا) وأنهم (يعبدون) شيخهم الديني[٧٠]. والواقع أن الحكومة وجّهت حملات مشابهة الى الأديان والطوائف الدينية والصوفية الأخرى في كُردستان، ومنها الديانة الإيزيدية في شمال الموصل،

(٦٧) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٣٠
(٦٨) حلمي، رفيق: مذكرات، الجزء الثاني، من منشورات الأمانة العامة للثقافة والشباب، مطبعة الأمانة العامة، أربيل ١٩٨٨. صفحة ٥٥٣.
(٦٩) رفيق: المصدر نفسه، صفحة ٥٥٧
(٧٠) أنظر: كتاب عبدالرزاق الحسني، الجزء السادس.

وطائفة كاكائي في أطراف كركوك والسليمانية. وكان مبعث هذه الطروحات الحكومية هو تشبث الشيخ أحمد بالمضمون الإجتماعي لدعوته الصوفية. وقد يفيد أن نذكر أن الباحث الأميركي مايكل گونتر نقل عن مسرور بارزاني النجل الأكبر لرئيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني أن الشيخ أحمد رفض في تلك الفترة طلباً حكومياً بتسجيل أراضي منطقة بارزان إقطاعية كاملة بإسمه لأغراض الضرائب. ويشير الى أن الشيخ رفض هذا الإجراء لخشيته من أن يفسر أحفاده وأقاربه الأمر في المستقبل على أن هذه الأراضي تعود لهم بالفعل(٧١).

لكن مع هذا كلّه، ظلت العمليات العسكرية التي شاركت فيها القوة الجوية البريطانية، تتواصل بضراوة ضد بارزان. وقد بدأت الصفحة الأشد عنفاً في هذه العمليات في نيسان ١٩٣٢ حين شرعت القوة الجوية البريطانية بشنّ هجوم مدمر على منطقة بارزان. وفي هذه الفترة برز نجم الشقيق الاصغر للشيخ أحمد، ملا مصطفى بارزاني، الذي بدأ بقيادة إحدى أهم جبهات القتال ضد القوات الحكومية.

إنتفاضة ١٩٣٢ – ١٩٣٣

واجه المقاتلون البارزانيون الهجمة العراقية المدعومة بالقوة الجوية البريطانية بشجاعة كبيرة. وإستطاعوا في ٢٦ نيسان من العام نفسه، إسقاط طائرة حربية بريطانية وأسر طياريها الإنگليزيين اللذين أُصيبا بجروح نتيجة سقوط الطائرة.

هنا برزت، مرة أخرى، نزعة البارزانيين الى التسامح الإنساني، فطلبوا من القوات البريطانية إرسال أطباء لمعالجة الطيارين الجريحين. والواقع أن البريطانيين أرسلوا طبيباً لمعالجة الجريحين، رافقه مفوض سياسي بريطاني للتباحث مع الشيخ أحمد في شأن إطلاق سراحهما.

(٧١)
Gunter, Michael M. The Kurdish Predicament in Iraq, A Political Analysis, St. Martin`s Press, New York 1999, P 15.

وبعد مفاوضات قصيرة بين الإنگليز والشيخ أحمد، وافق الأخير على الإفراج عن الطيارين مقابل قيام السلطات العراقية بإطلاق سراح خمسة وعشرين بارزانياً كان أحد رؤساء العشائر الكُرد سلّمهم غيلةً الى بغداد، إضافة الى مطالبته بوقف عمليات قصف القرى جواً. وعلى رغم أن الطائرات البريطانية توقفت في الثاني من آيار (مايس) عن القصف، إلا أنها سرعان ما عادت الى عملياتها الجوية في الخامس والعشرين من الشهر نفسه بعد إنهيار الهدنة وتجدد القتال بين الطرفين.

قاوم البارزانيون الهجوم العراقي في الجبال المحيطة بمنطقتهم. وكان الكُرد في مختلف مناطقهم يتابعون أخبار القتال بقلق وإستياء من تصرفات البريطانيين الذين لم يكتفوا بدعم المجهود الحربي العراقي ضد الشيخ محمود الحفيد في السليمانية، إنما بدأوا بدعم المجهود نفسه ضد البارزانيين. وكان هذا الإستياء والإمتعاض عاملاً أساسياً في إحتفاظ الحركة القومية الكُردية بحيويتها في الفترة بين الحربين العالميتين على رغم التراجع الحاصل في شعاراتها.

في حزيران من العام نفسه عادت الطائرات البريطانية لقصف بارزان والقرى المحيطة بها من جديد، ما أسفر عن تدمير ٧٩ قرية في المنطقة، إضافة الى قتل عدد من المدنيين نتيجة رمي الطائرات قنابل موقوتة على تلك القرى.

كان يمكن للشيخ أحمد أن يواصل قتاله في الجبال الوعرة المحيطة بمنطقته ولو في شكل مبعثر وضيّق. لكنه فضّل بعد إشتداد حملات القوة الجوية البريطانية الإنسحاب مع مقاتليه الى الجانب التركي من الحدود. والأرجح أن قراره كان نابعاً من حرصه على وقف الهجمات الوحشية للطائرات البريطانية ضد القرى والأهالي. لهذا أضطر المقاتلون البارزانيون الى الإنسحاب في الحادي والعشرين والثاني والعشرين من حزيران الى داخل الأراضي التركية حيث اعتقلتهم الحكومة التركية ونفتهم الى مدينة أدرنه قرب الحدود مع بلغاريا.

لكن بعد أقل من عام عادت الحكومة التركية وسلّمتهم في ربيع ١٩٣٣ الى الحكومة العراقية التي وضعتهم قيد الإقامة الجبرية في مدينة الموصل. أما

الشيخ أحمد وشقيقه، ملا مصطفى، وبقية وجهاء بارزان، فإن السلطات الحكومية أودعتهم السجن.

وكان الملك فيصل الأول زار تركيا في تموز ١٩٣١ حيث وقّع بعد إجتماعات عقدها مع كبار المسؤولين الأتراك، بلاغاً مشتركاً نصّ على تمسك الدولتين العراقية والتركية بمبدأ عدم إفساح المجال في داخل حدودهما لأية محاولة ترمي الى الإخلال بأمن إحدى الدولتين[٧٢]. وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٣٢ وقّعت الحكومتان التركية والعراقية خلال زيارة قام بها رئيس الوزراء نوري السعيد الى انقرة معاهدة نصت على تسليم المطلوبين.

هكذا سحقت الحكومتان العراقية والتركية، بتعاون مباشر من بريطانيا، إنتفاضة الشيخ أحمد التي هدفت الى إستقلال كُردستان في الفترة ١٩٣١-١٩٣٢[٧٣].

ظلّ البارزانيون في سجون السلطات العراقية في مدينة الموصل الى عام ١٩٣٦، بعد ذلك تم نفيهم الى بغداد، ومنها الى البصرة والناصرية والحلة. وفي ١٩٣٩ نقلتهم السلطات الحكومية الى قصبة آلتون كوبري بين أربيل وكركوك، ثم الى قصبة كفري جنوب شرقي كركوك، وأخيراً الى السليمانية.

ويروي المؤرخ الكُردي حسين حزني موكرياني في كتيب[٧٤] عن أحداث تلك الحقبة، قصصاً مروعة عن الحياة الصعبة التي قضاها البارزانيون في السجن والنفي والتشرد. كذلك يشير الى موجة الاستياءات والتذمر التي طغت على الكُرد في مختلف مناطق كُردستان من رفض السلطات الحكومية اطلاق سراحهم وإعادتهم الى موطنهم. وكانت بغداد التي دخلت الحرب في كانون الثاني ١٩٤٣ الى جانب الحلفاء تتذرع بظروف الحرب وتعقيداتها لإطالة نفي البارزانيين.

(٧٢) عبدالرزاق، المصدر نفسه، صفحة ١٤٥ .

(٧٣) Dilip Hiro, The Longest War, Harper Collins, Great Britain, 1990, P13

(٧٤) موكرياني، حسين حزني: حوادث كُردستان التاريخية، كتب في ١٩٤٧، طبعته دار ئاراس للنشر في أربيل، ١٩٩٩ .

في ما بعد، شكّلت مآسي البارزانيين وقصص نفيهم وتشردهم مصدراً رئيسياً لتبلور وعي قومي كُردي معاصر وتهيئة مقدمات إلتفاف الشرائح المتنورة حول زعامتهم. وفي هذا الإطار يقول محمد بريفكاني في كتيب[٧٥] أصدره في الخمسينات باللغة العربية أن إسمَي الكُرد والبارزانيين قد إختلطا، وأن إسم البارزانيين يحضر في شكل دائم كلما يجري الحديث عن الكُرد في أي مكان، مضيفاً أن إسم بارزان اصبح يشغل موقعاً بارزاً في التاريخ الكُردي.

من دون شك، تأثرت النشاطات السياسية والمسلحة للبارزانيين في العشر سنوات الأولى (١٩٣٣-١٩٤٣) من حقبة النفي والسجن. لكن اللافت أنها لم تتوقف أو تنته، إنما إستمرت في مختلف مناطق بارزان الجبلية تحت قيادة أتباعهم ومؤيديهم.

ففي ١٩٣٥ أطلق القائد العسكري، البارزاني، خليل خوشوي، وكان أحد أتباع الشيخ أحمد، إنتفاضة مسلحة ضد الحكومة العراقية. وعلى رغم أن السلطات الحكومية لجأت، كعادتها، الى خيار العنف وإتخذت إجراءات واسعة لقمعها، شملت التنسيق بين قياداتها العسكرية في الموصل وأربيل وكركوك، إلا أنها إستمرت نحو عامين وإستطاعت أن تلحق خسائر ملحوظة بالقوات العراقية.

لكن مع هذا إستطاعت القوات العراقية في المحصلة النهائية قتل خليل خوشوي وزوجته وعدد من مقاتليه في آذار ١٩٣٦. ويروي الدكتور كمال مظهر أحمد في أحد هوامش كتاب الضابط العسكري الكُردي العراقي الذي رافق أحداث تلك الفترة، فؤاد عارف، أن زوجة خوشوي كانت تشارك زوجها القتال ضد القوات الحكومية[٧٦].

يشير فؤاد عارف، في كتابه أيضاً، الى أن الحركة القومية الكُردية إتخذت في بعض الحالات في ذلك الشطر الزمني طابع العمل المسلح، في حين إتخذ

(٧٥) بريفكاني، محمد: حقائق تاريخية عن القضية البارزانية، باللغة العربية، بغداد ١٩٥٣، ترجمه الى الكُردية چەپەر، ١٩٩٢. صفحة ٧.

(٧٦) عارف، فؤاد: مذكرات، الجزء الأول، باللغة العربية، تقديم وتعليق الدكتور كمال مظهر أحمد، مطبعة خبات، دهوك ١٩٩٩، صفحة ١٣٦.

بعضها الآخر صورة تكتلات سياسية وثقافية وصحفية ذات طابع قومي تسعى الى ضمان حقوق الشعب الكُردي.

وفي هذا الخصوص، تصح الإشارة الى تنظيمات قومية كُردية نشأت آنذاك، منها حزب (هيوا- الأمل)[٧٧]، وجمعية (برايەتى- التآخي)[٧٨] اللتين تأسستا في كُردستان العراق، وجمعية (ژ.ك) في كُردستان إيران، وجمعية (خويبون- الإستقلال) بين كُرد تركيا وسورية[٧٩]. هذه الجمعيات والأحزاب نشأت في الوقت الذي كانت مآسي البارزانيين تخض المجتمع الكُردي خضّاً عميقاً في أواخر ١٩٣٧ و ١٩٣٨.

كذلك تصح الإشارة الى النشاط الذي شهدته الصحافة ذات الطابع القومي الكُردي، ومنها مجلة (گلاويژ)[٨٠] الثقافية التي صدرت في العاصمة العراقية بغداد عام ١٩٣٩.

وبينما الحال على تلك الشاكلة، إندلعت الحرب العالمية الثانية بين دول الحلفاء والمحور. وعلى رغم أن الحكومة العراقية لم تعلن دخولها الحرب الى جانب حليفتها بريطانيا إلا بعد أكثر من سنتين من إندلاعها، إلا أنها إستغلت الحرب لتشديد قبضتها على المجتمعين العراقي والكُردي ومحاولة خنق حركاتهما الديموقراطية. ولم ينج من هذه الحال حتى القوميين العرب الذين أعلنوا، في تعاطف واضح مع ألمانيا الهتلرية، تمرد مايس ١٩٤١ بهدف

(٧٧) تأسس حزب هيوا في ١٩٣٨ وعقد مؤتمره التأسيسي في كركوك ثم إمتدت فروعه الى بغداد وأربيل والسليمانية وغيرها. إنضم الى صفوفها عدد كبير من العسكريين الكُرد، ضباطاً وضباط صف، وكثير من ذوي المهن المختلفة والأطباء والمهندسين والمدرسين ورؤساء العشائر. أنظر: فؤاد عارف- مذكرات- هامش ١٢- صفحة ١٣٦. لاحقاً إنتهى الحزب حين عقد مؤتمره العام في عام ١٩٤٤ في كركوك نتيجة الخلافات بين أعضائه.

(٧٨) ظهرت جمعية (برايەتى) قبيل الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٨ وكانت لها ثلاثة فروع توزعت على بغداد وكركوك والسليمانية، بينما مركزها الرئيسي كان في السليمانية (فؤاد عارف- هامش ١٣- ص ١٣٦).

(٧٩) تأسست جمعية خويبون في بيروت في عام ١٩٣٧ .

(٨٠) گلاويژ -مجلة ثقافية وأدبية كُردية - صدر عددها الأول في كانون الأول ١٩٣٩ وعددها الأخير في ١٩٤٩. كانت تطبع في بغداد. صاحبها ومديرها المسؤول ابراهيم أحمد، ورئيس تحريرها علاءالدين سجادي.

القضاء على النفوذ البريطاني في العراق. لكن القوات البريطانية سرعان ما دخلت حرباً محدودة مع هؤلاء إنتهى الى إعدامهم وإعادة الملكية الى بغداد.

أما بالنسبة الى الوضع الكُردي، فإن الحال كانت مختلفة. فالحكومة لم تستطع بسط سيطرتها على كُردستان نظراً لوعورة تضاريسها من جهة، ولعدم نجاح أساليبها في إستيعاب الكُرد ضمن نسيج المجتمع العراقي من جهة أخرى. لهذا كان إندلاع الحرب وتوجه الوضع السياسي داخل العراق الى مزيد من التعقيدات في بداية الأربعينات، بمثابة فرصة ملائمة لا لتطور الحركة القومية الكُردية فحسب، بل لتمهيد الطريق أمام تطور كبير آخر شهدته الزعامة البارزانية في تلك الحركة، ذلك هو تحول المرجعية البارزانية من الصوفية الى السياسة. وكانت الإشارة الأوضح في هذا الإتجاه، سطوع نجم مصطفى بارزاني في إنتفاضة ١٩٤٣.

الفصل الثاني

مصطفى بارزاني: التحوّل الأكبر

الكُرد في مفترق الحرب العالمية الثانية

حين دخلت منطقة الشرق الأوسط النصف الأول من أربعينات القرن الماضي، كانت الحرب العالمية الثانية في طريقها الى تفاقم متزايد. والواقع أن هذه الحرب لم تضطرم في الشرق الأوسط بالضراوة الدموية التي إشتعلت في أوروبا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا. لكنها مع ذلك، هزّت المنطقة في عمقها السياسي والثقافي والإقتصادي، ووضعتها على عتبة مرحلة مختلفة تماماً عن المراحل السابقة خصوصاً بعد إتضاح نتائجها.

يصح القول إن الكُرد حاولوا التعامل في شكل حيوي مع معطيات الحرب بقدر تعلقها بقضيتهم القومية. وكان أملهم في تلك السنوات أن تعيد لهم الحرب العالمية الثانية ما فقدوه من حق سياسي في إقامة دولتهم المستقلة بعد الحرب الأولى.

إجمالاً، يمكن تلمس المظاهر الرئيسية لتعامل الكُرد مع الحرب ونتائجها في عدد من الميادين:

الأول: إتساع نشاط المنظمات السياسية بين الكُرد وظهور سلسلة من الجمعيات والأحزاب في اشكال أكثر تطوراً وعصرية من مثيلاتها قبل الحرب.

والثاني: صدور مجموعة من المجلات والمطبوعات الثقافية، منها مجلة (نيشتمان) في مهاباد، و(گلاويژ) في بغداد.

والثالث: إندلاع إنتفاضات مسلحة في عدد من البقاع الكُردية في العراق وتركيا وإيران. وكانت إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ في كُردستان العراق أرقى تلك الإنتفاضات من النواحي السياسية والتنظيمية والعسكرية.

والرابع: تأسيس جمهورية مهاباد في كُردستان إيران وإلتفاف كُرد العراق حولها في ١٩٤٦.

واللافت أن مصطفى بارزاني كان في تلك الفترة بمثابة العتلة الرئيسية في

إدارة أكثر تلك التطورات والأحداث السياسية والعسكرية، خصوصاً في ثلاث من أهم محطاتها: إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥، وجمهورية كردستان (مهاباد)، وتأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني.

إستمد بارزاني، المولود في الرابع عشر من نيسان عام ١٩٠٣ في قرية بارزان، إنطلاقته السياسية الأولى، من حاضنته العشيرية التي إمتزجت فيها الصوفية النقشبندية بالدعوات السياسية والقومية. لكن الذي يُحسب لصالح بارزاني أنه أدخل تطويراً جوهرياً على بنية الحركة القومية الكُردية وأدواتها وآلياتها، ما وضعها على أعتاب مرحلة مختلفة كلياً عن مراحلها التي سبقت الحرب الثانية.

يصح القول، في هذا الصدد، أن الأحداث إختلفت وموازين القوى السياسية والإجتماعية والثقافية شهدت تغييرات عميقة في زمن بارزاني، وأن هذه التغيرات أملت، في ما بعد، تحولات موازية في بنية الحركة القومية الكُردية. لكن الأصح أن بارزاني كان له دور رائد وحيوي في ضبط ايقاع تلك التغيرات وتجسيدها على أرض الواقع عن طريق رؤيته السياسية الثاقبة.

في هذا الوسط، كان شقيقه الكبير الشيخ أحمد، وقبله الشقيق الأكبر الشيخ عبدالسلام بالنسبة إليه بمثابة مدرسة كبيرة. وكان شهد وهو لايزال في الرابعة من عمره السجن والتشرد في ١٩٠٧، وإعدام شقيقه الأكبر وهو لم يتجاوز العاشرة في ١٩١٤.

لكن الشيء الذي أشّر الى شروع دوره، أنه نأى بنفسه منذ البداية عن التدرج الديني ضمن المشيخة البارزانية، مكتفياً بإقتفاء الآثار السياسية لأسلافه. وفي إشارة واضحة الى هذا الأمر، يؤكد السياسي الكُردي، السكرتير الأول السابق للحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد أن إنخراط بارزاني في حياة الثورة في طفولته سبق تبلور وعيه السياسي والقومي[٨١]، معتبراً أن حاضنة الأهل والأقارب بكل مآسيها وعذاباتها، قوّت من عريكته العسكرية وشدّت من وعيه السياسي وإدراكه المبكر لآلام شعبه، إضافة الى

(٨١) أنظر: مؤتمر بارزاني، الذكرى التسعون لميلاد مصطفى بارزاني، كلمة عزيز محمد السكرتير الأول السابق للحزب الشيوعي العراقي في المؤتمر.